نحو منهجية معاصرة
في التعريف بالإسلام

أزمة المناهج العلمانية ومشكلات التغيير الإسلامي

محمد محيي الدين الأصفر

دار الإشراق
الدوحة - قطر

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

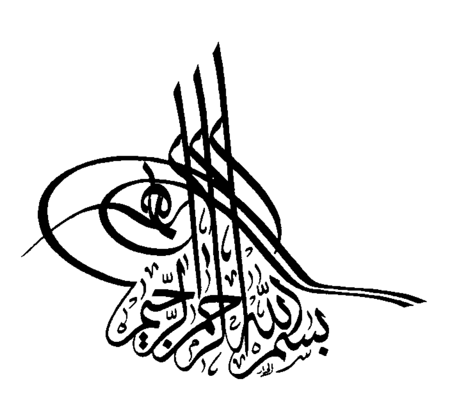
دار الإشراق
الدوحة - قطر
ص.ب (٧٣٤٥) - هاتف (٤٤٤٤٧٨١١)

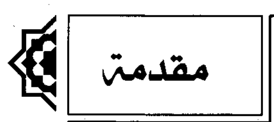
(تنبيه)

الكتاب عليه بعض الملاحظات

الإدارة

أزمة المناهج العلمانية
ومشكلات التغيير الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه وبعد:

فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فالأيام في الآية الكريمة أوقات الظفر والفوز، ومداولتها بين المؤمنين وأعدائهم، أي تحويل الظفر والغلبة بينهم مرة للمؤمنين ومرة تكون الغلبة لأعدائهم، هذه المداولة سنة من سنن الله تعالى في تدافع أهل الحق مع أهل الباطل، فلا عجب أن تكون مرة لأهل الحق ومرة لأهل الباطل، ولكن يجب أن يعرف بأن المداولة في الواقع مبنية على أعمال الفريقين، فلا تكون الغلبة إلا لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها، فإذا كانت المداولة في النصر والغلبة بين الفريقين منوطة بالأعمال التي تفضي إليها، كالاجتماع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما

يستطاع من القوة، كان على المؤمنين أن يقوموا بهذه الأعمال ونحوها من مستلزمات الغلبة والنصر، حتى تكون المداولة لهم لا لعدوهم، فإن الأمنيات بدون عمل مستطاع لا تكفي لتحقيق المطلوب. فإذا أخذنا هذا مقياساً لظروفنا المعاصرة فما الذي نراه في واقعنا الحالي: هزائم ثلاث متتالية في حروب العرب مع اليهود، وما تزال الهزائم تجر هزائم واقعية أخرى، فماذا يعني ذلك؟ ذلك يعني خللاً كبيراً، يعني وجود أزمة عميقة الجذور والأبعاد، متعددة الخواص والأسباب، وإن المفكر المسلم لا بد أن يلحظ أولاً أن الإسلام قد غُيّب في هذه المعارك كلها، بل أريد له أن يغيّب، وهذا من المفارقات العجيبة، إذ بينما يقاتل اليهود من منطلق توراتي ديني حسب زعمهم[١] فنجد أن هنالك تركيزاً عجيباً على إبعاد الإسلام في الطرف المقابل.

وفي يقيني أن هذه الهزائم لا بد أن تكون تعبيراً

---

(١) خرجت مظاهرة بتاريخ ١٣/ ٢/ ١٩٩٩م في القدس قوامها ربع مليون يهودي احتجاجاً على قرار رئيس المحكمة العليا الذي يرى تقديم القوانين الإسرائيلية على التعاليم اليهودية الدينية، وخرج الحاخام الكبير للاشكيناز وقال: (إن الهوة التي تتعمق بين الفريقين أثرت علي لدرجة أنني أجهشت بالبكاء) وقد رافق الحاخام المظاهرة وقال: إذا لم تقتنع المحكمة العليا منطقياً بالكف عن التدخل في الشؤون الدينية فستقصى.

ظاهرياً لهزيمة داخلية لأوضاع الأمة كلها، ذلك أن الأمم قد تمر بمرحلة من الضعف والهوان، والتشتت والانقسام، وضياع الهوية، واضطراب القيم، فتنهزم داخلياً على كل صعيد، ثم يلحق ذلك انهزامها في معركة عسكرية.

لقد عانت أمتنا بكل بساطة هذه المرحلة بكل مواصفاتها السلبية، في القيادات العلمانية المؤثرة الفاعلة، والشعارات الغربية المستوردة، والنظم والأوضاع المتفسخة الجائرة، وعلى الرغم من وجود آثار الإسلام في عامة بسطاء الأمة الذين لا يملكون من الأمور شيئاً، ووجود بعض الدعاة الإسلاميين الصادقين والمفكرين الواعين، إلا أن معظمهم مقصي عن مواطن التأثير والفاعلية، كما فقدت المؤسسات الإسلامية وكبار المسؤولين فيها الاستقلال في القيام بمهامها في بعض الدول العربية الإسلامية المعنية والمؤثرة، ولم يعد هؤلاء حماة الإسلام وفكره ومصالحه، بل أصبحوا موظفي الأنظمة يتحدثون عن الإسلام بحسب رغبة أو طلب السلطات السياسية، وهكذا اهتموا بالأشكال والمظاهر، وأهملوا روح التعاليم الإسلامية، وأوكلت أمور الأمة المصيرية إلى أناس لا يهمهم الإسلام من قريب أو بعيد، لأنهم أصبحوا خارج دائرته إلتزاماً واهتماماً، وإن كانوا قد ينتسبون إليه ظاهرياً وكلاماً لا يعدو الكلام.

لقد هزت فواجع الهزائم الأمة هزاً عنيفاً، وأشعرتها بوجود خلل عميق الجذور أدى إلى هذه النتائج المروعة، وأفقد معظمها الثقة بالقيادات السياسية والثقافية، وعزا كثير منهم ما حدث إلى المناهج العلمانية السائدة، ومعظمها يساري أو غربي المنهج، عصبي النزعة يعربي التوجه لا الاتجاه، وإلى أسلوب القيادات القهرية والاستبدادية، وغياب الحريات، وتكريس الأخطاء والتغاضي عنها بحجة المقولة التي يرفعونها دائماً لتبرير تلك الأوضاع الجائرة: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» . . . فإذا بالمعركة تفلس، وتسفر عن خسارات مختلفة الصور، أهمها: حرية الإنسان المواطن وكرامته وحياته، ثم أرضه وعرضه. . . وماذا بعد؟!

ولا شك أن من واجب العلماء والمثقفين وقيادات الأمة في مختلف المواقع، أن يتنادوا للحوار الإيجابي البنّاء، بحيث يُبصّرون الأمة بمواطن الزلل والانحراف، ويدعون إلى وحدة الأمة في منهج إسلامي عربي إنساني لا انغلاق فيه ولا تعصب، يتسع في مقاصده ومرماه ليشمل أفراد الأمة كلها بمختلف نزعاتهم العرقية والطائفية والدينية، حيث يسود الإخاء والتعاون والتكامل في ظل الحرية الإنسانية والسياسية والدينية، والقيم الثابتة المستقاة من كتاب ربنا ومنهج رسولنا محمد ﷺ؛ وَحْدَةٌ تجمع ولا

تفرق، تقرّب ولا تشتّت، تحبّب ولا تبغّض، ذلك منهج الأمة عبر تاريخها الطويل، منذ أربعة عشر قرناً؛ والذي يفترض أن يمتد بأصوله الراسخة الثابتة، وعطاءاته المتناغمة المتآزرة، وظلاله الوارفة إلى ما شاء الله، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى جماهير الأمة بعد أن تحقق لها حريتها الصحيحة لا المزيفة هنا وهناك، ودون أية وصاية من هذا الجانب أو ذاك.

أما الذين لا يريدون إلا أن يكونوا إمّعة لهذا المنهج الغربي، أو الشرقي، أو غيرهما؛ فهم ضحايا غزو ثقافي، أو تعصّب طائفي، أو تبعية عمياء، وهم لا يصلحون بحال أن يكونوا قادة للأمة، أو موضع القرار منها.

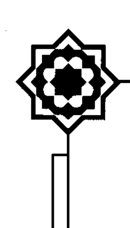
ونحن نعلم أن ذلك لن يكون هيّناً أو عفوياً، لأن المنتفعين من بقاء حالة التردّي هذه لن يستكينوا عن المضي بالشغب إلى مداه، ويصطنعوا صوراً مزيفة للحرية في ظل الحراب الظاهرة أو المستترة هنا وهناك.

ولكن سنن الله ﷻ الغالبة لن تسمح باستمرار بقاء الغثاء إلى ما لا نهاية، بل سنة التغيير ماضية في الخلق لبقاء الأفضل والأحسن، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

وإنني إذ أتقدم بهذا البحث المتواضع لأوضح رؤية

موضوعية كما أحسها، لا أريد أن أنسب لنفسي الكمال المطلق، بل حسبي أن يكون لبنة في بناء نتطلع إلى استكماله شامخاً عزيزاً قوياً، ولن يكون ذلك إلا بالإنسان الحر الصادق المؤمن، ووجود المناخ السويّ؛ الذي يسوده العدل والمساواة والإخاء، ولن يكفل ذلك إلا المنهج الإسلامي الإيماني الذي يستلهم كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ نبراساً وتوجيهاً لمنهج رباني التوجه، تراثي التاريخ، علمي الأسلوب، سائلاً الله تعالى أن ينفع به الأمة، ويجري به عليّ الثواب، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

محمد محيي الدين الأصفر



ظهور المناهج العلمانية والسقوط السياسي الإسلامي

يمكننا أن نؤرخ لبداية غربة الإسلام شبه الكاملة عن الحياة والمجتمع الإسلامي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وذلك بسقوط الدولة العثمانية، حيث كان هذا السقوط أعظم الفواجع والنكبات التي مني بها العالم الإسلامي، ونزلت بساحة الإسلام، لقد تكاتفت معاول الصليبية واليهودية على إسقاط الدولة العثمانية، والتي تشكل رمز قوة المسلمين ووحدتهم، فقد أسقط أعداء الإسلام بسقوطها الإسلام سياسياً وتشريعياً. ويبدو أن الكيد والتخطيط لهذا الأمر كان مبكراً؛ يقول أحد المؤرخين الصليبيين «ديجو فارا»: (إن الخطة للقضاء على الدولة العثمانية الإسلامية قد بدأت عشية انتهاء الحرب الصليبية عام ١٢٩١م (٦٩٠هـ)، واستمرت حتى حققت أهدافها عام ١٩١٨م. إن العداوة المزمنة التي يشعر بها الأوروبيون للأتراك، راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والإسلام)[١].

---

(١) «الغارة على العالم الإسلامي» محب الدين الخطيب.

وبالرغم من العداء والتخطيط المزمن، فإن عملية تنفيذ الإنقلاب العسكري وتوقيته جاء نتيجة المواقف الصلبة التي وقفها السلطان عبدالحميد من مخططات (هرتزل) التآمرية على فلسطين، ففي عام ١٨٩٨م تمكن (هرتزل) والحاخام اليهودي (موشيه ليفي) من مقابلة السلطان عبد الحميد في استنبول بعد توسط السفارة الألمانية، وتقدم هرتزل من السلطان وقال له: (مولانا صاحب الشوكة، جلالة السلطان... لقد وكّلنا عبيدكم اليهود بتقديم أسمى آيات التبجيل والرجاء، عبيدكم المخلصون اليهود يقبِّلون التراب الذي تدوسونه، ويستعطفونكم للهجرة إلى فلسطين المقدسة... ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو أن تتفضلوا بقبول هديتهم، خمسة ملايين ليرة ذهبية).

ولما كان السلطان عبد الحميد قد أحيط علماً بقرار المؤتمر العالمي للصهيونية في سويسرا، وعلم بوصول المهاجرين اليهود من روسيا، لذا كان يفهم ما يقصده الوفد اليهودي من هديته، لذلك وبعد أن استمع إلى هذا العرض أمر وبكل هدوء مرافقه أن يطردهم من القصر، وأصدر على الفور أمره بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين[1].

---

(١) «أسرار الانقلاب» مصطفى طوران، ترجمة كمال خوجة ص٦، ١٦، ١٧. كما يمكن الرجوع إلى كتاب الأمة: «اليهود والتحالف مع الأقوياء» للأستاذ الدكتور نعمان السامرائي.

ولقد دفع السلطان العثماني ثمن هذا الموقف كما يدفع كل المؤمنين أثماناً باهظة لمواقفهم الصلبة. ففي عام ١٣٢٧هـ قام (مصطفى كمال) وهو من يهود الدونمة بحركته وخلع السلطان عبد الحميد. وفي عام ١٣٤٣هـ صدر القرار المشؤوم بإلغاء الخلافة الإسلامية وتحويل تركيا إلى دولة علمانية، وما تبع ذلك من إلغاء اللغة العربية، وإلغاء التشريعات الإسلامية، واعتماد الزي الأوروبي، ورفع الأذان باللغة التركية، وإلغاء المدارس والمحاكم الشرعية، وإلغاء التقويم الهجري، ومنع حجاب المرأة المسلمة، وإغلاق المسجدين الكبيرين في استنبول (آيا صوفيا ومحمد الفاتح) كما قامت السلطات بإعدام مئات العلماء، ومما تجدر الإشارة إليه أن (إيمانويل قره صوه) رئيس الجالية اليهودية في ولاية (سالونيك) وهي ولاية عثمانية، كان أحد أعضاء الوفد الذي حمل إلى الخليفة العثماني قرار عزله عن الخلافة.

وكان من نتائج سقوط الخلافة بروز النزعة القومية في العالم الإسلامي، ولقد عمد الاستعمار إلى إذكاء وتشجيع هذه النزعة؛ ليكون الولاء لها والتعلق بها بدل الإسلام.

فكان أن نشأت في هذه الفترة كثير من النظم والأحزاب على أساس الولاء للقومية، ومنها القومية

العربية، والقومية السورية، والقومية الكردية، والقومية الفرعونية... وهكذا تحقق لأعداء الإسلام ما يهدفون إليه من تحويل ولاء المسلمين عن الإسلام إلى نزعات أخرى قومية؛ ثم قيام الأحزاب القومية ذات المحتوى الماركسي.. ففي بيروت في الخمسينات من القرن الماضي عقد اجتماع لدعاة القومية العربية يهدف إلى تبني محتوى عقائدي للقومية العربية، كان من نتائجه اعتبار الفكر الاشتراكي الماركسي المحتوى الإيديولوجي للحركات القومية العربية عموماً، كما نجم عن ذلك انسحابات كثيرة من إطار العمل القومي بسبب توجهاته الماركسية.

وكان من أهم نتائج سقوط الخلافة العثمانية:

١ ـ سقوط الإسلام سياسياً.

٢ ـ سقوط الشريعة باعتبارها مصدراً أساسياً ووحيداً لكافة التشريعات.

٣ ـ وتردّي وضع الثقافة الإسلامية التي بدأت تعاني من هجمات علمانية، إن الحركات العلمانية التي كانت بطبيعتها تستند إلى الامتيازات والأفضليات المعطاة لها؛ قد نشأت باستثناء نادر عن الحركات التي كانت مؤسسة في أصلها على القيم الإسلامية، ومن لحظة تحقيق الاستقلال أصبح هذان الاتجاهان المتناقضان عاملين أساسيين مكونين لحركات التحرير، ومن ثم نشأ بينهما الصراع الذي يعطينا

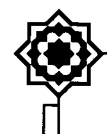
صورة معهودة عن المجتمع الممزق المنقسم، ولعل النموذج الأمثل لذلك ما يحدث في تركيا الكمالية، إذ وقفت النخبة المثقفة في جهة مقابل الشعب، دونما أي رابط أو اتصال بينهما، إذ قسمتهما هوّة عميقة لا سبيل إلى اجتيازها. ومعلوم أن مصطفى كمال قد لجأ إلى تجربة انفرد بها في التاريخ الإسلامي؛ بمحاولة تغيير الذاكرة في الجسد القومي؛ إذ أمر بتغيير حروف الكتابة إلى اللاتينية بإصدار قرار واحد، وهي سابقة أولى من نوعها في العالم المتحضر، كما أجرى عدة «إصلاحات» موازية، على حد زعمه. . . وبذلك يكون قد أحرق جميع كتب ومكتبات تركيا، وكل كلمة مكتوبة حتى تاريخ قرار الإصلاح هذا، ودفن تاريخ تركيا برمّته، وتردّت الدولة في نوع من محو الذاكرة القومية، ومع إشراقة فجر يوم صدور قرار الإصلاح كان الشعب التركي أكثر شعوب العالم أمية، أما النتيجة فهي أن دولة تركيا على الرغم من مرور ٥٠ سنة على ما سمي بالإصلاحات الموجهة ضد الإسلام؛ مضطرة إلى البحث عن الحل في خيار صعب بين فوضى الحرب الأهلية، وبين الدكتاتورية العسكرية. ولم يعد يسمع صوت لقوة عالمية كانت سباقة في رسم السياسة الدولية؛ لأن تركيا تهتم بأمور العالم بدلاً من اهتمامها بشؤونها الداخلية، ولا شك أن هذا الوضع يناسب سياسة أوروبا وأمريكا، ولكنه لا يناسب شعب تركيا والعالم الإسلامي قطعاً.

وبطبيعة الحال ليست جميع الأمثلة في العالم الإسلامي مأساوية بدرجة المثال التركي، ولكن مصطفى كمال وحده كان يظهر عداوة صريحة ومكشوفة للإسلام؛ من بين جميع الزعماء العلمانيين الذين داسوا بأقدامهم على طموحات وتوجيهات شعوبهم الإسلامية، ووقفوا ضد المنهج الإسلامي كحضارة، وتاريخ ومنهج شامل، ومستقبل موعود...

ولكن هل يستطيع هؤلاء الاستمرار على هذا النهج المخزي والمحبط بحيث يكون لأعداء العرب والمسلمين القوة والغلبة، ولليهود في إسرائيل المصطنعة القيادة والسيادة كما خططوا وبرمجوا؟.. نقول وبالله المستعان: لن يكون ذلك بحول الله وقوّته، وفق السنن الربانية التي عرفتها البشرية في الأحقاب المتعاقبة... والتي يقول الله تعالى بشأنها: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد:١٧]... وليس العرب ولا غيرهم مستثنى من هذه السنة الربانية. ولأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كلمة خالدة في هذا الشأن يقول فيها: «نحن قوم ما زلنا أذلة حتى أعزنا الله بالإسلام، ومهما نبتغي العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»...

وإننا لنرى آثار بداية العزة في هذه الأمة بيقظتها من

جديد، وعودتها إلى معين الأخوة الإنسانية والعقائدية، وبداية تفاعلها الصادق مع ما حمّلها الله تعالى لها من يقين وإيمان صادق، وحرص على خير الإنسانية ليس شكلاً ومظهراً ولكن أخوة وسماحة وعدالة ويقين. . .
﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] إذن. . لماذا تردّت حالة المسلمين؟ وسقطت دولتهم؟ وتغلّب أعداؤهم. . . ذلك ما سنوضحه باختصار وإيجاز. . .



أسباب سقوط الخلافة العثمانية

١ ـ **شيوع الظلم بين الحاكم والرعية**، وبين الرعية بعضهم لبعض. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود]. فالدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس لا يتظالمون بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليست سنة الله إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية، وتظالم الناس فيما بينهم. بهذا قال بعض أهل العلم والمفسرين. قال الإمام الرازي في «تفسيره»: «إن المراد بالظلم في هذه الآية الشرك، والمعنى: أن الله لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كان التعامل بينهم على الصلاح والعدل وعدم الفساد». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل؛ الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنوع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت

مسلمة»[1].

٢ ـ تفشي الجهل والأمية لدى عامة الشعب، حتى قلَّ وجود المدارس في الحواضر فضلاً عن القرى، فلا تكاد تجد في قرية بكاملها من يحسن القراءة والكتابة، وقد اعتمد عامة المسلمين على أنفسهم في تحفيظ القرآن الكريم للأولاد في الكتاتيب البدائية.

٣ ـ قيام مؤسسات ومعاهد علمية تبشيرية في العالم الإسلامي ومن أهمها آنذاك الجامعات الأمريكية، في كل من بيروت والقاهرة، وحلب واستانبول، وجامعة الحكمة في بغداد، والجامعة اليسوعية في بيروت، فضلاً عن عدد هائل من المدارس التبشيرية في مختلف حواضر العالم العربي. وقد بدأ تأسيس الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٨٦٠م، ففي بيروت لما احتج الطلبة المسلمون في الجامعة الأمريكية بالإضراب عن الدراسة عام ١٩٠٩م لأنهم كانوا يرغمون على الدخول يومياً إلى الكنيسة للصلاة وفقاً للطقوس المسيحية، أصدرت الجامعة منشوراً جاء فيه: «إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال وتعب مسيحي، هم اشتروا الأرض وأقاموا الأبنية، وهم شيدوا المستشفى وجهزوه، ولا يمكن استمرار المؤسسة بدون

---

(١) من «رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص٤٠.

مساندة من هؤلاء، وقد فعلوا كل هذا ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده، فتعرض منافعه الحقيقية على كل تلميذ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه»[1].

وبهذه المناسبة أعلن مجلس الأمناء في الكلية منشوراً يلتقي مع المنشور السابق جاء فيه: «إن الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني، ولا لبثّ الأخلاق الحميدة، ولكن أولى غاياتها أن تعلّم الحقائق الكبرى في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي، والتأثير المسيحي وأن تخرج بذلك على الناس»[2] فكيف سيكون الحال إذا علمت أن ٧٠٪ من المسؤولين في العالم العربي قد تخرجوا من هذه الجامعات[3].

٤ ـ التردي الاقتصادي، وشيوع الفقر والحرمان الذي أفضى أحياناً إلى حدوث مجاعات، مات فيها خلق

---

(١) «التبشير والاستعمار» الدكتور عمر فروخ، ص١٠٧، ١٠٨، ١٠٩.

(٢) «التبشير والاستعمار» الدكتور عمر فروخ، ص١٠٧، ١٠٨، ١٠٩.

(٣) يقول الشيخ علي الطنطاوي: إنه درس في بغداد، وكان في الفصل الذي درس فيه ٢٥ طالباً أكثرهم من اليهود القسم العلمي ـ انظر: «مذكرات الشيخ علي الطنطاوي» (ذكريات في بغداد).

كثيرون، بينما كان السلاطين وحواشيهم وكبار رجالات الدولة يعيشون حالة الترف والإسراف، وهذه آثارهم ما تزال باقية؛ تشهد على مدى التبذير، والبطر في المراكب والأواني والأدوات، والقصور الفارهة التي قلَّ أن يضاهيها في العالم نظير.

٥ ـ السماح بنمو التعصب العرقي للقومية الطورانية التركية، وفرض اللغة التركية في دواوين الدولة وعلى جميع موظفيها، والمتعلمين من عامة الناس، وتشجيع تأليف الكتب الدينية بهذه اللغة، مما أفسح للنعرات القومية الأخرى مجالاً للظهور.

٦ ـ تسلل اليهود إلى مواقع هامة وخطيرة في الدولة، حيث تركزوا بصورة واضحة في الجيش بعد إعلانهم الإسلام نفاقاً، وكذلك في دواوين المالية والحسابات وغيرها من المواقع الحساسة في الدولة، وكانوا ينتهزون الفرص للقضاء على الخلافة الإسلامية وتحقيق أحلامهم الخبيثة، وقد آزرهم في ذلك العلمانيون وأبناء الطوائف الأخرى التي كانت تكيد للإسلام.

الاستعمار والتحرر الوطني:

وهكذا سقطت الدولة العثمانية؛ التي كانت رمزاً للدولة الإسلامية الكبرى في أوائل القرن العشرين، وذلك للأسباب الداخلية التي ذكرنا بعضها، ولأسباب خارجية

أخرى؛ انحدرت أصلاً من العداء الصليبي الغربي، فالحروب الصليبية إذا كانت قد اختلفت من حيث الوسائل والأسباب القديمة والمباشرة، فإنها لم تختلف من حيث الجوهر، بل دخلها مزيج من الكيود والفتن والمؤامرات المعروفة في تاريخ البلاد المعاصر، حتى انهارت الدولة، واقتسم تركة الرجل المريض من كان يتربص بها الدوائر، وسقطت البلاد العربية على وجه التحديد في براثن الاستعمار البريطاني والفرنسي؛ وعملت اتفاقية (سايكس بيكو) على اقتسام معظم البلاد العربية تحت وصاية الدولتين الاستعماريتين، ودخلت البلاد العربية مرحلة صراع دموي بين القوى الوطنية والجيوش والقوى الاستعمارية ردحاً من الزمن، عملت فيه الدولتان الاستعماريتان عملهما في التخريب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولم تجليا عن البلاد العربية إلا بعد أن فتّتَتْها إلى دول صغيرة ضعيفة، وأقامت في قلبها دولة إسرائيل لليهود في فلسطين، ومكّنت هذه الدولة المصطنعة من النمو والقوة والسيادة؛ بحيث يعلو شأنها، وتقوى شوكتها على جميع جوارها، ثم تبسط نفوذها الإقليمي والعالمي، وتداعت الأمور حتى غدت الدول العربية مجتمعة تخطب ود هذه الدولة الإسرائيلية الاستعمارية، وتقبل عروض السلام المذل، ثم لا سلام؛ بل هو تخاذل وضعف واستسلام، مع وجود تلامذة للغربيين في الجانب

الآخر؛ لا يقلون إساءة لأمتهم من أي عدو، وما يزال الأمر يسير من سيّئ إلى أسوأ مما هو معروف لا يحتاج إلى تفصيل، فإن وسائل الإعلام قد غطت هذا الجانب، فلم يعد هناك شيء قابل للتستر والاختفاء والتلبيس، والأمة كما أسلفنا تعيش مرحلة إحباط، ولم يبق أمام الأمة العربية بعد هذا الخذلان والشعور بالانهزام إلا العودة إلى الإسلام؛ لتتخذه عقيدة ومنهاج حياة؛ بعد أن عصفت بها الأعاصير، وخذلتها المناهج المستوردة، وأرهقتها التجارب والمحن والخطوب.

يقول الرئيس علي عزت بيغو فتش:

«إن الوضع الذي ننطلق منه أقل ما يمكننا وصفه في بعض جوانبه بأنه محزن، صحيح أن جميع الدولة الإسلامية قد نالت استقلالها، ولكن استقلال أغلبها استقلال شكلي فقط، بينما ظل الاستعمار الغربي الاقتصادي قائماً، وأدهى من ذلك وأمر أن يظل الاستعمار الروحي الفكري، ويسيطر الغربيون في بعض الدول الإسلامية على المدارس، ووسائل الإعلام بشكل مباشر أو غير مباشر، ويواصلون تسميم عقول أجيال المسلمين، ولكن المشكلة الحقيقية هي وجود الأجانب الغرباء بثوب المواطنين من بني جلدة المسلمين، وبخاصة في طبقة المثقفين الذين فقدوا كل اتصال بهوية شعوبهم،

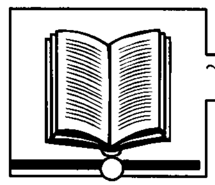
وهؤلاء يقدمون الأفكار والمناهج الغربية المعادية للإسلام (ولنسميها بالكمالية نسبة إلى نموذجها الأشهر) لشعوبهم، وبذلك يدور سوء التفاهم في المجتمع في حلقة مفرغة.

في بعض الدول بدأت الشعوب تستيقظ من حالة الانبهار بالغرب، ولكن بسبب غياب المنهج الإسلامي الرصين؛ تمَّ ذلك ببطء شديد، وبخط سير متعرج، ولا شك أن للدول الإسلامية مصالح مشتركة، وأن لها أعداء مشتركين، وللطرفين كليهما حلفاء تقليديون؛ وعلى الرغم من وضوح ذلك فإن الإدراك بحقيقة الأمر يتنامى بصعوبة، ولا يكاد يؤثر شيئاً في السياسة الرسمية للدول الإسلامية.

واستناداً إلى بعض الدلائل العملية يمكن القول: بأن أغلب حكومات الدول ذات الشعوب الإسلامية؛ تقاوم إقامة النظام الإسلامي للحكم؛ بإقامة التبريرات المصطنعة، مع أن النظام الإسلامي نظام طبيعي تلقائي لمجتمعات الشعوب الإسلامية، إن نظام الحكم الإسلامي يمكن أن يقوم في تلك المجتمعات بين عشية وضحاها؛ إذا ما أبعدنا عنها وسائل القمع، وتلك النظم التي تحيا بطرق مصطنعة، وستقيم الشعوب الإسلامية المحررة هذا النظام الإسلامي؛ لأنها لا ترضى بأي نظام أو مذهب دخيل».

أعتقد أننا ونحن في أوائل القرن الحادي والعشرين

الميلادي؛ إذا أردنا أن نقوّم المرحلة التي نحن فيها ضمن سلم الصعود والهبوط الحضاري، نجد أن القرن الماضي كان قرن نهاية الهبوط، وسيكون القرن الحالي بداية الصعود، والله أعلم، وذلك إذا أخذنا بسنن الله تعالى، وكنا على مستوى الإسلام الذي نؤمن به، وندعو إليه الناس كافة؛ فهو السبيل الحقيقي لتقدم البشرية، وحريتها وازدهارها وخلاصها من التخبط والضياع، والأنانية والهلاك.



الفصل الثاني

التفسير الغربي للأحداث

لم يتصور كثير من الغربيين أو المغتربين أنه يمكن أن يقوم للإسلام قائمة على صعيد الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، بعد تلك الفجوة التي حصلت بين الأمة وتراثها ودينها بكيود مختلفة منهم، وضعف وجهل مزرٍ من المسلمين عموماً... ولهذا فقد أقلقهم أن يعود الإسلام من جديد إلى حياة الأمة تدريجياً ليكون باعث نهضتها وحضارتها وهويتها التاريخية.

إحياء الإسلام الأصولي وفق التفسير الغربي له:

لقد أصبح مصطلح «الإسلام الأصولي» جزءاً من قائمة المصطلحات الغربية في مجالات السياسة والصحافة والبحث العلمي. والحق أن تتابع الأحداث المثيرة قد ركّز انتباه العالم على ظاهرة انبعاث الإسلام؛ مع اهتمام جوهري بما يترتب عليها من آثار سياسية واقتصادية.

والمهم أن ظاهرة الإحياء هذه لم ينتبه لها رجال

السلطة والعلماء والصحافة في الغرب، إلا بعد أن وصلت إلى مرحلة من التحدّي بالقوة.

والواقع أن انبعاث الروح الإسلامي في العالم قد سبق الانفجار الإيراني الذي يمثل أول تعبير ثوري عنه، ومع ذلك فقد بقي هذا الانبعاث لم يتنبه إليه أحد في الغرب باستثناء حالات نادرة مثل مقالة برنارد لويس حول الموضوع، والتي نشرت عام ١٩٧٦م.

دراسة غربية للأحداث:

إن أهم دراسة لهذا الموضوع كانت للأستاذ الدكتور هرير دكمجيان عام ١٩٨٦م، وهو خبير أمريكي بقضايا الشرق الأوسط بعنوان: الاتجاه الأصولي الإسلامي: النظريات والأشكال والاتجاهات يقول فيها:

١ ـ الوحدة العربية:

«لقد كان دعوة «الوحدة العربية» والاشتراكيات الحكومية كإطار قومي لهوية عربية، وقد اتخذت عبد الناصر رمزاً لها، وبدت منافسة للولاءات المذهبية والإقليمية والقبلية والطائفية. لكن «الوحدة العربية» كانت تهدد مصالح كثيرين من بينها مصالح الحكومات العربية، والنخبة الاقتصادية المتميزة، والقوى العظمى.

ثم جاءت هزيمة إسرائيل للعرب عام ١٩٦٧م وموت عبد الناصر في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠م ليجعل انهيار

«الوحدة العربية» أمراً محتوماً، وأملاً بعيد المنال في ظل الظروف الراهنة.

وفي السنوات الحرجة بعد حرب حزيران (يونيه) ظهرت على السطح وبقوة أزمة الجدل العربي حول المذهبية، وكان التحديث في البحث يهدف إلى الوصول إلى تركيبة جديدة، أو شكل من النجاح السياسي النفسي لتقود النضال من أجل إحراز نصر عسكري، وتقدم اقتصادي، واستقرار سياسي.

وفي غضون ذلك؛ فإن الصفوة الحاكمة ـ طمعاً في التخفيف من أزمة الشرعية التي كانت تنذر بالخطر ـ قد عملت على تجميد الحركة السياسية، وعلى احتواء الجدل حول المذهبية السياسية.

وقد تركز هذا الجهد في تقوية ملامح الهويات الخاصة القائمة على القوميات الإقليمية مثل: المصرية والسورية والأردنية، وذلك في أعقاب انهيار نظرية «الوحدة العربية»، ومع ذلك فإن تخلي الجماهير العربية عن نظرية «الوحدة العربية» لم يمكن إيقافه عند مستوى القومية المرتكزة على الدولة، وإنما انتهى إلى الاستقرار على مستوى من الهوية أكثر عمقاً ووطنية ألا وهو الإسلام في صورته العربية الصادقة. والواقع أن هذا الانبعاث الإسلامي لم يتوقعه معظم المرافقين للوضع العربي أواخر

الستينات، ففي محاولة للتكهّن في نتائج حرب ١٩٧٣م توقع المنظرون العلمانيون والغربيون توجهاً متطرفاً في العالم العربي ذا صبغة يسارية، وحين يعاد النظر في الماضي نجد أن هذا التكهن كان صحيحاً جزئياً، فقد حدث التطرف، ولكنه لم يكن من النوع اليساري، وإنما كان ذا صبغة إسلامية من حيث المضمون.

٢ ـ التوجه الإسلامي:

وهذا التوجه الإسلامي في ذاته وقف معارضاً لليسار العربي القومي العلماني بأشكاله المختلفة من ناصرية أو بعثية أو شيوعية، نتيجة الارتكاسات والاحباطات، والهزائم المتلاحقة، فكان لا بد أن يتحمل هؤلاء مسؤولية الفشل. وقد حاولت بعض الحكومات العربية تشجيع التيار الإسلامي بطريقة انتهازية على أمل تحييد اليسار، وتلك كانت الاستراتيجية الأساسية للرئيس أنور السادات الذي أطلق سراح «الإخوان المسلمين» من السجن في محاولة لمواجهة اليسار المصري وتحميله مسؤولية الفشل كجزء من حملته للقضاء على الناصرية، مع أنه أحد رموزها، وذلك من المفارقات، ولكن السادات لم يستطع أن يقدم لمصر مذهبية بديلة تحل محل اليسار القومي العلماني، ولم يرتض المنهج الإسلامي بديلاً بالمعنى الصحيح، وإنما أراد أن يركب المد العاطفي الروحي، دون تغيير جوهري في

المنهج سوى تغيير الولاء من الشرق إلى الغرب فقط، فكانت الكارثة، وذهب ضحية تجاربه الخائبة.

٣ ـ إشكال الانبعاث الإسلامي المعاصر، وفقاً لبعض آراء العلمانيين:

أصبحت العودة إلى الجذور الإسلامية ـ خلال العقدين الأخيرين سمة بارزة للوجود الاجتماعي في نطاق العالم العربي والعالم الإسلامي الأوسع.

أ ـ فعلى مستوى القاعدة العريضة نجد إسلام الجماهير، أو الإسلام الشعبي الذي يتميز بدرجة عالية من الالتزام الديني والروحي والاجتماعي، وبحرص زائد على أداء الشعائر التعبدية، وشعور متنام بالأخوة الإسلامية.

وتشمل مظاهر هذا الإسلام الشعبي إقبالاً كبيراً على ارتياد المساجد وعلى المشاركة في حلقات دراسة القرآن، وبناء المساجد وإظهار الشعارات الدينية في البيوت والأماكن العامة، وهذا التطور العضوي والطبيعي للأحداث وفق معطياتها التاريخية، لم ينظر إليه عند الدراسين الغربيين بهذه البساطة، بل دخل ضمن تصوراتهم للمفاهيم وتفسيراتهم للوقائع حتى قال أحدهم:

«هذا الضرب من الأصولية الإسلامية سلبي بوجه

عام بالمفهوم السياسي، باستثناء مواقف الأزمات إذ يمكن أن ينحو إلى التطرف».

ولكن هذا الإسلام الشعبي ـ إلى جانب طبيعته الخالصة ـ يقدم للجماهير إطاراً للهوية، ومنفذاً روحياً للنجاة من الإحساس بالاغتراب.

ب ـ وأحد المظاهر الهامة للتعبير عن الإسلام الشعبي هو انتشار التصوّف المتمثل بالطرق الصوفية التي تتجنب الأنشطة السياسية.

أما على المستوى الاجتماعي فيدل على الأصولية تكاثر الجمعيات الخيرية التي يقيمها سكان الأحياء بهدف مواجهة احتياجاتهم التي أهملتها الدولة.

هنالك صور أخرى للإحياء الإسلامي تضم الحركات والجماعات التي تسعى إلى التغيير الاجتماعي، فهذه المنظمات الإسلامية الإصلاحية تعمل على تحقيق مزيد من أسلمة المجتمع.

ج ـ ومن نماذج هذه الجماعات الإصلاحية جماعة «الإخوان المسلمون» المصرية، وفروعها في العالم العربي، التي أظهرت توجهاتها السياسية القوية في محاولتها الضغط من أجل التحول التدريجي إلى الإسلام. ويمكن أن نلمح توجهات نحو هذا الأمر في السودان،

وكذلك في الأردن ومصر ودول الخليج؛ حيث تسعى الجمعيات الأصولية إلى جعل الحكومات تزيد من التزامها بأحكام الشريعة الإسلامية وتطبيقها.

وعلى أي حال، فإن هذا التيار العام للأصولية لا يزال لديه استعداد كبير للنضال، يمكن أن يبرز في أوقات الأزمات الخارجية أو الداخلية.

فأي إثارة قوية من قبل الدولة أو من الخارج، يمكن أن يتحول هذا التيار الإسلامي العام إلى قوة عصيان مسلح:

١ ـ **والمثل على ذلك هو «الجهاد»** وشواهده كثيرة ومتعددة.

٢ ـ **وقد أظهرت فصائل «الإخوان» في تونس والكويت** استعداداً للدخول في الفعالية السياسية، وأخطر من هذا، ذلك التوجه المعادي للوضع الراهن، والذي تنتهجه الجماعات الإسلامية الأكثر توجهاً للقوة، والتي تضم الفروع الكبيرة للجماعة الإسلامية، وجماعات أخرى صغيرة متطرفة.

٣ ـ **الجماعات المتطرفة ـ على النقيض من «الإخوان»**، والجماعات الأصولية الأخرى الكبيرة في

التيار العام ـ تتمسك بالتغيير الثوري للمجتمع والوصول إلى الغاية العليا وهو إقامة الدولة الإسلامية، وأظهر هذه الجماعات «حزب الدعوة الإسلامية» وفصائله العاملة في العراق ودول الخليج، وكذلك في مصر «التكفير والهجرة» و«حزب التحرير الإسلامي» و«منظمة الجهاد» وكثير من الجماعات الأخرى الأصغر حجماً والعاملة سراً، وكلها تعرضت للقهر العنيف.

ويشبه هؤلاء في التطرف الجماعات الأصولية الشيعية في جنوب لبنان، وتشمل الجناح المتطرف لمنظمة (أمل) و(حزب الله) و(الجهاد الإسلامي). وهذه المجموعات ذات تحالف وثيق مع (حزب الدعوة) في العراق ومزروعة في الخليج، ومع الجمهورية الإسلامية في إيران.

٤ ـ **أما في السعودية**، فقد تمثلت الحركة الجهادية الإسلامية السنة في جماعة إسلامية بقيادة جهيمان العتيبي، التي استولت على المسجد الحرام في مكة لعدة أسابيع في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩م إلى أن طردتها قوات الأمن.

وهناك جمعيات أخرى مشابهة وسرية تعمل بنشاط في المغرب وفي إسرائيل، وفي الضفة الغربية، وفي البلاد الإسلامية خارج العالم العربي أيضاً.

٤ ـ اختلاف واضح في المذهبية المنهجية والتكيف المعاصر لدى بعض المنظّرين للأحداث:

أ ـ اختلاف الجمعيات الأصولية:

تختلف الجمعيات الأصولية اختلافاً واضحاً في مذهبيتها وفي تركيبها الطبقي، فجماعات مثل: (حزب التحرير) و(الجهاد) عرفوا بـ(التكييفية) بمعنى أنهم على استعداد لأن يقبلوا ـ ضمن مذهبيتهم وأنشطتهم ـ بعض الأفكار والممارسات الحديثة.

وعلى العكس من ذلك نجد (الجذريين) ـ مثل: (التكفير والهجرة) في مصر، و(الإخوان) في السعودية ـ الذين يكافحون من أجل أن يعيدوا الدولة الإسلامية الأولى التي أنشأها محمد ﷺ، وبالنسبة للشيعة فإن غايتهم الأساسية هي إقامة دولة دينية كهنوتية من النوع الإيراني التي تتداخل فيها النزعات العرقية والطائفية والعنصرية والدينية مع الأحداث السياسية المعاصرة.

وبينما نجد «الإخوان المسلمون» وغيرها من جماعات التيار العام، تستمد أساساً من الطبقة الوسطى، نجد الجماعات الأكثر تطرفاً تجند عناصرها من الشرائح الدنيا للطبقة الوسطى، ومن الطبقة الدنيا.

وبينما يسعى الأصوليون من أبناء الطبقة الوسطى إلى المحافظة على مكانتهم المهددة بالتلاشي، يحاول ـ عبثاً ـ

نظراؤهم من أبناء الطبقة الوسطى والدنيا الارتقاء إلى موقع أعلى، وهذا الاختلاف الطبقي ربما يفسر زيادة التطرف في الجمعيات الإسلامية التي تعتمد على عناصر من الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى ومن الطبقة الدنيا.

٥ ـ ردود فعل الأنظمة العربية الإسلامية:

كان رد فعل الأنظمة العربية والإسلامية في مواجهة الاتجاه الأصولي، هو اللجوء إلى مجموعة من الإجراءات تتراوح ما بين الاحتواء والقهر، ولم تكن كلها ناجحة وقد اختارت السعودية ـ على الرغم من طبيعتها الإسلامية ـ سياسة التأكيد المتكرر على التزامها بالإسلام والعمل على تعميقه. لكن أنور السادات ـ رغم تظاهره كثيراً بالتقوى أمام الجماهير ـ لم ينجح في تهدئة ثائرة الأصوليين الذين اغتالوه، إذ لم تؤثر فيهم السمعة الشخصية المصطنعة للرئيس كمسلم ملتزم شكلياً وظاهرياً، وذلك لتواطُئه في التفريط بحقوق المسلمين والعرب في فلسطين.

كما اختارت دول عربية وإسلامية أخرى أن تواجه التطرف الإسلامي بتقوية المؤسسة الإسلامية التي تضم كبار القانونيين والأساتذة والخطباء الذين يعملون على تدعيم النظام الحاكم وإضفاء الشرعية عليه.

٦ ـ الاتجاهات والتوقعات:

إن القضايا المتعلقة بالشعوب في الشرق الأوسط

تتسم بالتعقيد، وصعوبة التنبؤ بتطوراتها ومن ثم فإن كل محاولة للتكهن لا بد وأن تكون مؤقتة؛ وغير نهائية، ففي الوقت الحاضر يبدو أن لدى معظم الحكومات في العالم الإسلامي من القدرة على القهر والاحتواء؛ ما يكفي لإحباط أي محاولة ثورية للاستيلاء على السلطة بالطريقة التي اتبعتها الثورة الإيرانية.

ولكن يجب ألا يفهم من هذا، أن القادة والأنظمة في أمان من التهديدات؛ التي قد يكون من بينها محاولات للاغتيال، وقلب لنظام الحكم؛ وإثارة للاضطرابات المدنية.

ومع ذلك فليس من غير المحتمل على المدى الطويل؛ أن تمر بعض الدول العربية والإسلامية بتجربة استيلاء الأصوليين على السلطة، أو على الأقل عن طريق الأسلمة التدريجية نتيجة الضغط الاجتماعي والسياسي الهائل من قبل الجماعات الإسلامية، وهذا الاستنتاج مبني على عدة عوامل فعالة هي:

١ ـ الزيادة المستمرة في حدة الظروف المؤدية إلى الأزمات في الدائرتين العربية والإسلامية.

٢ ـ عجز كثير من الأنظمة عن مواجهة التحدي الأصولي عن طريق القيام بتنفيذ الإصلاحات الأساسية الاقتصادية والاجتماعية التي يسودها التزويق والتزييف.

٣ ـ استمرار عجز العسكرية الإسلامية تجاه إسرائيل والغرب والاتحاد السوفياتي.

٤ ـ عدم وجود أي مذهبية موضوعية بديلة، أو أطر للمعارضة الاجتماعية، والعمل الثوري سوى «الأصولية الإسلامية».

٧ ـ وأخيراً فإنهم يصلون إلى ما يلي من النتائج:

ولهذا فمن الصعب ألا تنتهي إلى النتيجة القائلة: أن الأصولية الإسلامية سوف تستمر كقوة مقتدرة؛ لأنها تقدم لكثير من المسلمين هوية وطنية أصلية، ومذهبية للمعارضة، ووسيلة للتغيير الثوري، وإذا كان من المحتمل أن تنجح السلطات الحاكمة في قهر الموجات المتتابعة من المتطرفين، فإن المتوقع لظاهرة الأصولية أن تستمر في المستقبل المنظور.

وإذا قُدِّر للأصوليين الإسلاميين أن يتمكنوا من الوصول إلى السلطة في بلد أو أكثر، فإنه من الواضح تماماً أنهم سيكونون أكثر نجاحاً من سابقيهم في إقامة مجتمع سياسي قابل للحياة والنمو، وتجربة إيران تصوّر مدى الصعوبة في تحويل النظرية الأصولية إلى مجتمع سياسي إسلامي على أرض الواقع. فإن ذلك يعود إلى عدم الانتفاع من الموضوعية الإسلامية، والانفتاح على العالم الإسلامي كله بمحبة وإخاء حقيقي، ونأمل أن يسود

ذلك مستقبلاً كافة الطروحات الإنسانية بالمحبة والسلام.

إن النتائج المحتملة للتطرف الإسلامي المتنامي ذات أهمية وتأثير، ليس فقط على مجموعات الصفوة الحاكمة (من أبناء البلاد الإسلامية) ولكن أيضاً على العالم غير الإسلامي، خاصة: إسرائيل والولايات المتحدة وأوروبا والاتحاد السوفياتي.

إن استيلاء الإسلاميين على السلطة في أي بلد من البلدان العربية الكبرى، ستكون له بالتأكيد آثار سلبية على مصالح إسرائيل وأمريكا، وإن مظاهر الأصولية الشيعية في إيران ولبنان والعراق والخليج قد أبانت بوضوح ما لدى تلك الحركات من حماس ثوري وفعّالية.

والأصولية الإسلامية يمكن أن تصبح أكثر توازناً واعتدالاً تحت تأثير المحفّزات الناتجة عن الأزمات الرئيسية؛ وتجاوزاً للاختلافات الاجتهادية، كما عرف عن ذلك عبر التاريخ الإسلامي زماناً ومكاناً.

أما بالنسبة لإسرائيل، فإن الأصولية الإسلامية تشكل تحدياً مرعباً أكثر من أي تحد شكلته القومية أو أشكالها المختلفة المشتقة من الوحدة العربية.

والواقع أن التحدي الأصولي لوجود إسرائيل كدولة يهودية أمر واضح لا لبس فيه من حيث أسس العقيدة، فليس هناك أي حركة إسلامية ـ بما في ذلك أصوليو التيار

العام لـ«الإخوان المسلمون» ـ على استعداد للاعتراف بإسرائيل التي ينظرون إليها على أنها العدو الأول، ويعتبرون الجهاد ضدها عملاً مقدساً.

إن كل حروب إسرائيل السابقة ـ باستثناء حروب جنوب لبنان ـ كانت ضد القوميين العرب، الذين كانوا يأخذون على عاتقهم إقامة دولة من النوع السياسي الدنيوي شبه العلماني.

وعلى العكس من ذلك، نجد أعداء إسرائيل من الأصوليين يبرّرون كفاحهم على أساس نوع من الالتزام؛ يسمو على تلك المثل الدنيوية كالاستقلال السياسي والقومية، ويركز على واجب الخلاص عن طرق الاستشهاد في سبيل إقامة شرع الله على الأرض.

نصائح علمانية غربية لإسرائيل: وبناء على هذا التحليل السريع، والدراسات المعاصرة للأحداث فإن بعض السياسيين العالميين الغربيين للأحداث يرون ما يلي:

إذا كان التشخيص السابق للأصولية ذا نصيب من الواقعية، فمن البصر لإسرائيل أن تعقد صلحاً شاملاً مع القادة العرب الحاليين بدلاً من أن ترجئ ذلك إلى ظروف غير مضمونة في المستقبل. هذا الاقتراح يجب أن يحظى باهتمام غير عادي نظراً إلى التزايد الذي لم يسبق له مثيل

في عدد الفلسطينيين الذين ينضمون إلى الجماعات الإسلامية وإلى التطرف المحتمل حدوثه بين الفلسطينيين في الضفة الغربية والأردن اقتداء بالعسكرية الشيعية في جنوب لبنان.

إن تسوية مبكرة لمشكلتي الفلسطينيين والقدس سوف تقضي على عاملين أساسيين من العوامل التي تدفع إلى العسكرية الأصولية، كما أنها سترفع من قدرة الصفوة الحاكمة على كبح الاندماج نحو التطرف في المنطقة كلها.

* تعقيب وتوضيح لهذه الدراسة الغربية للأحداث:

هذه الدراسة تتضمن بعض الحقائق، ولكنها تصف التيارات الإسلامية بالعنف والتطرف، وهي وإن استثنت بعضها من ذلك ليكون الكلام قريباً من الموضوعية، فإنها أكدت على صعوبة التفاهم مع هذه التيارات ورَمَتْها بالعاطفية والعشوائية والتخلف.

وبرَّرَتْ للسلطات العلمانية انهزامها بما حدث في المنطقة من متغيرات أهمها الحروب العربية الإسرائيلية، والمعاناة الاقتصادية، وأزمة الحريات الإنسانية ثم أشفقت الدراسة على مستقبل إسرائيل إذا ما قُيّض لأحد التيارات الإسلامية أن تصل إلى السلطة نتيجة الإحباطات التي عانتها الشعوب، وإفلاس المناهج العلمانية من تحقيق

آمال الشعوب على الرغم من أنها تبوأت قيادة البلاد منذ عشرات السنين.

ثم دعت إسرائيل إلى التعقل والاتفاق مع السلطات القائمة التي يمكن التفاهم معها قبل فوات الأوان، واختلال المعادلات التي حرص عليها الغرب، ومهّد لها، ورعاها خلال العقود المنصرمة.

ويبدو أن واضع الدراسة تتنازعه فكرتان في تقييمه لمستقبل التيارات الإسلامية:

أ ـ فهو يحاول مرة أن يطمئن الغربيين وأتباعهم من صعوبة وصول أحد هذه التيارات الإسلامية لتحقيق أهدافها، ووصولها إلى السلطة بسبب تعاون أصدقائهم في المنطقة العربية والإسلامية، الذين ما زالوا يملكون زمام الأمور ويقمعون بوسائل القهر المختلفة امتدادها، ويضربون بوسائل البطش والشدة تحركات عناصرها، ويحاول أن يبرئ السادة الغربيين من مثل هذه الوسائل، حتى لا تخدش سمعة الديمقراطية والحرية التي يتبناها الغرب في بلاده فقط!.

ولا بأس للأتباع والأعوان في بلاد أخرى أن يفعلوا ما يرونه مناسباً إما بسبب تخلفهم حتى ولو كانوا علمانيين... وإما بسبب معرفتهم بنبات منطقتهم.

ب ـ كما يحاول مرة أخرى أن يخوّف من غموض هذه التيارات، وقدرة الإسلام السحرية على تحقيق

مفاجآت غير متوقعة، تشذّ عن الحسابات التي اعتاد واضعو القرار في الغرب أن يضعوها في تقييمهم للأحداث، وبالتالي فلا بد من وضع هذا الأمر في الاحتمال الذي لا ينبغي أن يغرب عن البال:

ولكنه من جانب آخر يشكك في مستقبل هذه التيارات الإسلامية حتى ولو تبوّأت افتراضياً مركز القيادة في أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية، لأنها لن تكون أوفر حظّاً مما سبقها، إما بسبب المشكلات المتعددة التي يمكن أن تعانيها لا سيما المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية!.. وهي لا تملك لذلك علاجاً ولا خطة، وليس لها إلا رصيد عاطفي ومبادئ غائمة غير واضحة.

والذي نريد توضيحه ابتداءً ما يلي: لقد كان الاختصاصيون الغربيون في دراسة الإسلام والشرق الأوسط ضعيفي التأهيل؛ من حيث القدرة على التصوّر؛ كي يفهموا ظهور الموجة الإسلامية، فضلاً عن أن يتناءوا بها، ولم يكن علماء الاجتماع الأمريكيون في حال تمكّنهم من أخذ الدين مأخذ الجد كقوة جماهيرية، وذلك نظراً لأنهم عاشوا وتربوا في بيئة يسودها خليط من النظريات المادية كالليبرالية البرجوازية والماركسية الجديدة، والوظيفة البنيوية.

والغريب أن قصر النظر هذا؛ الناشئ عن المادية قد أصاب الأمريكيين المتخصصين في الشرق الأوسط، الذين

لم يدعوا فرصة إلا وأذاعوا فيها أن «الإسلام منهج حياة، وليس مجرد دين» ولكنهم استمروا ينظرون إليه كدين؛ لا بد أن يكون مصيره العزلة؛ التي أصابت سواه من الأديان في عصر المادية الغربية.

ولم ينج من هذا الاتجاه المتخصصون في قضايا الشرق الأوسط؛ من المفكرين والسياسيين الأوروبيين، والسوفييت سابقاً، وكان الأخطر من هذا هو العجز الواضح الذي أصاب المثقفين العلمانيين في المنطقة؛ الذين كان معظمهم ـ كإخوانهم من الغربيين عمياناً عن الإحياء الإسلامي، ولعل ما تلقَّوه من التدريب في مجال العلوم الاجتماعية الغربية والماركسية كان أقوى مما يجب، فنظروا بمنظارهم فأخفقوا وأحبطوا وانكشفوا، ثم ما لبثوا أن استردوا وعيهم وبدأوا يحاولون تغيير وسائلهم وطروحاتهم.

التصورات النظرية المناسبة:

إن النظرية الاجتماعية الغربية تميل بوجه عام إلى القول بأن فترات الأزمات تتميز بفوران في العاطفة الدينية عند الجماهير، هكذا يقول الباحثون الغربيون، وهو صحيح من حيث المبدأ.

والواقع أنه يمكن البرهنة تاريخياً على صدق هذه العلاقة السببية بين الأزمات الاجتماعية والإحياء الديني،

فحدوث الانبعاثات الإسلامية خلال فترات الأزمات الحادة في التاريخ الإسلامي كانت نمطاً مكرّراً منذ عصر النبي ﷺ، وقد أظهر الإسلام على امتداد القرون قدرة فريدة على أن يؤكد وجوده في مواجهة القوى الاجتماعية المنافسة، وبفضل هذه القدرة نجح في مقاومة العزل الذي فرضته الأوضاع العلمانية الحديثة على النصرانية والأديان الأخرى في بلادها، وعليه فإن الاتجاه الحركي الدعوي الإسلامي يمثل نظاماً أصيلاً للانبعاث الذاتي للروح الإسلامية، فتراه يتحرك حين يكون ثمة خطر يتهدد الكيان الروحي، أو الوجود المادي للأمة المسلمة.

والوصول إلى تفسير لظهور «الأصولية الإسلامية» بالمنطق الغربي؛ على أساس نظرية الأزمات الاجتماعية يتطلب تفصيلاً جوهرياً، إننا بحاجة إلى التساؤل: أي الأزمات الاجتماعية هي المسؤولة عن انطلاق ردود الفعل الإسلامية؟ والتفسير الشائع الذي يقدمه المنظّرون الغربيون والماركسيون يقوم على أساس (الحتمية الاقتصادية)، فيرون الانبعاث الديني على أنه نتيجة للأزمة الاقتصادية التي تعاني منها طائفة، أو طبقة أو فئة أو أمة بكاملها... هكذا يفسرون الأحداث التاريخية.

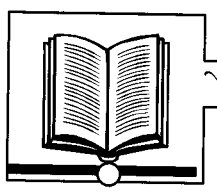
ولا شك، أن هذا التحديد المادي للمفاهيم، والقائل بأن الأزمات الاقتصادية تؤدي إلى الإحياء الديني، ينطوي - نظرياً على قدر كبير من الصحة بالنسبة لبعض

الأمم، ومع ذلك فإنه لا يقدم سوى تفسير جزئي لظاهرة الانبعاث الإسلامي المعقّدة، والتي لا يستطيع الباحث الغربي فهمها بعمق لأنه باختصار لا يفهم الإسلام!.

ويظهر الجدول التالي التباين الشديد في المحركات الخاصة التي كانت وراء انطلاق الحركات الإصلاحية الإسلامية في أحوال تاريخية مختلفة:

القائد	الحركة	السبب المحرك
١ ـ عمر بن عبد العزيز	ت/ ٧٢٠م	مخالفة الشورى في الحكم، وظهور العصبية القبلية، والتطفيف بين الناس.
٢ ـ أحمد بن حنبل	ت/ ٨٥٥م	فرض العباسيين مذهب المعتزلة/ القهر من قبل الدولة.
٣ ـ ابن حزم	ت/ ١٠٦٤م	ضعف الأمويين أخلاقياً وهزيمتهم في الأندلس.
٤ ـ ابن تيمية	ت/ ١٣٢٤م	سقوط الخلافة العباسية/ هجوم التتار/ الأزمات الأخلاقية والاقتصادية/ القهر.
٥ ـ محمد بن عبد الوهاب	ت/ ١٧٩١م	انهيار الدولة العثمانية/ الأزمة الدينية والأخلاقية.
٦ ـ السنوسية	ت/ ١٨١٠م	الأزمة الدينية القبلية/ الغزو الإيطالي.
٧ ـ المهدية	ت/ ١٨٩٠م	الصراع الديني القبلي/ الأزمة الاقتصادية/ الحكم البريطاني.
٨ ـ السلفية	ت/ ١٩٠٠م	الغزو العسكري الأوروبي/ الاستعمار الثقافي والاقتصادي.
٩ ـ الإخوان المسلمون والحركات الإسلامية المعاصرة	ت/ ١٩٣٠م	الأزمات السياسية/ الاقتصادية/ الاجتماعية/ والوجود الاستعماري.

إن المظاهر الرئيسية للانبعاث الإسلامي توضح الأزمات والمحركات ذات الوجوه المتعددة، والتي ولّدت ردود الفعل الحركي الإصلاحي في كل مرحلة من مراحل التاريخ؛ وذلك وفقاً للأزمات والمشكلات التي كانت تتعاقب؛ وإن تفصيل الكلام حول تلك المراحل يحتاج إلى تفصيل واسع، وإلى كتاب مستقل؛ ولهذا فقد اكتفينا بالإشارات السريعة دون تفصيل...



الفصل الثالث

تعقيب واستنتاج

١ ـ أزمة العلمانية تتجلى في: الهوية والثقافة والمشروعية والاستبداد والهزيمة العسكرية:

وبناءً على ما تقدم من تحليلات للأحداث علمانية ومعادية للإسلام فإننا نرى ما يلي:

١ ـ لقد توهّم المثقف العلماني في المنطقة العربية تحت تأثير الاستلاب الثقافي؛ الذي أنشأ لديه توتراً في علاقته بدينه، أن مشكلته من نوع مشكلة الإنسان الغربي، فدخل في سلسلة من التجارب النظرية والمعارك الوهمية.

فبدلاً من أن يعلنها حرباً على الخرافات والأساطير، التي كانت تكبّل ذهن الفرد في بلادنا؛ أعلنها حرباً على العقيدة، وبدلاً من أن يعلنها حرباً على الاستعمار والرواسب الفكرية الاستعمارية؛ أعلنها حرباً على القوى الوطنية التي كانت تستلهم الإسلام، ومنه تنطلق في تحرير الإنسان والبلاد، بل تجاوز الأمر ذلك إلى مرحلة التنكيل العنيف بتلك القوى، وذلك بأدوات السلطة التي تهيمن

عليها هذه الأفكار في بعض ديار العرب.

وقد ظهر نتيجة قياس ومماثلة خاطئين أن الدين سبب التخلف ومصدره؛ في حين كان فهم الدين بتلك الصورة المشوهة إحدى مظاهر التخلف والانحطاط، وإحدى أبرز مظاهرها وخصائصها، مما طبع أوجه نشاط هؤلاء الاجتماعية والفكرية والعلمية والأدبية والفنية بمثل هذا النقص المزري.

٢ ـ لقد توهّم المثقف العلماني أن التقدم الاجتماعي، والتخلص من أعراض الانحطاط والتخلف؛ إنما يكون بإبعاد الاختيارات الإسلامية، وباستلهام مناهج التغيير الغربية سواءً على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي، فدخل معظم العالم العربي في سلسلة من التجارب شرقية أو غربية، فلم يزدد واقعنا الاجتماعي إلا تخلّفاً، وواقعنا السياسي إلا استبداداً، واستفحل واقع الفقر والمسغبة أكثر من ذي قبل، وعانت الحياة الثقافية ولم تزل من بقايا أعراض الانحطاط.

٣ ـ وازدادت الأمة العربية تشتتاً وانقساماً، وتلاحقت الهزائم، وانهارت الأماني القومية، ودجّنت روح المقاومة للصهيونية المتغطرسة، وتضاءلت تلك الأماني وانحصرت بمطالب جزئية ضيقة؛ بعد أن أبعدت العقيدة الإسلامية من المعركة، وحل محلها نظريات ضيقة

مستوردة من العلمانية، والطبقية المادية، والوطنية الإقليمية العنصرية.

٢ ـ أسباب أزمة المناهج العلمانية:

ولما كان نجاح أي حركة تغيير اجتماعي رهيناً بمدى قدرتها على تعبئة الجماهير المعنية بالتغيير، في سبيل تحقيق الأهداف التي ترسمها هذه الحركة، وعلى الأخذ بتلابيب فكرها وعواطفها، وتوجيهها في سبيل تحدي العراقيل التي تقف دونها، ودون تحقيق تلك الأهداف، كان لا بد أن تستجيب أهداف هذه الحركات لحاجيات الإنسان المجند فيها، وتأخذها في صورتها المتكاملة. لا بد أن تكون تلك الفكرة مهيمنة على جميع أوجه النشاط الإنساني صغيره وكبيره، ولا بد أن تكون موجهة لأعمال أتباعها في جميع المجلات؛ فيجدونها حاضرة في فكرهم، وسلوكهم، وخلجات نفوسهم، وعلاقتهم الفردية والاجتماعية؛ بحيث يصدرون عنها في كل كبيرة وصغيرة، ومن ثم لا يجدون تناقضاً بين سلوكهم الاجتماعي، وبين تصرفاتهم في أحوالهم الشخصية، فالثانية امتداد للأولى، والالتزام الحق بالثانية لا يكون إلا بالالتزام بالأولى، وذلك وفق تفصيله فيما يلي:

أ ـ الانفصام في الهوية والثقافة والتشريع:

ولعل مصدر فشل المناهج التغييرية الغربية التي

جربت في العالم الإسلامي يرجع إلى أنها لم تستطع مخاطبة الإنسان العربي المسلم مخاطبة شمولية، خاطبت عقله دون أن تخاطب وجدانه وروحه، وقدمت له برامج اجتماعية دون أن تقدم له أجوبة مقنعة حول أسئلة تدور حول؛ هويته وانتمائه وأحواله الشخصية، وعلاقاته الأسرية، والتزاماته الأخلاقية، وألزمته بالنضال الخارجي دون أن يكون لها سلطان على خلجات نفسه، وأشواق روحه. وباختصار لم تستطع مخاطبته كإنسان ملتزم بخلفية حضارية؛ مستجيبة لحاجاته وآماله كلها، فجعلته يعاني الانفصام والتمزق.

ب ـ الشمولية الإسلامية:

وغاب توجيهها عن كثير من مظاهر نشاطه وسلوكه، ولم تكن حاضرة في كل وقت وحين، ذلك الحضور الذي تجده في عقيدة الإسلام عند المنتمي إليه؛ فهو ينام باسم الله ويستيقظ على ذكر الله، ويرتبط بشعائره بالصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، ويتجمع بتوجيه من الله تعالى ورسوله أسبوعياً في مؤتمر محلّي جامع مرة كل أسبوع، ومرتين في السنة في مؤتمر أكثر اتساعاً، ومرة في السنة في مؤتمر عالمي، ويعيش في كل سنة موسماً تربوياً لمدة شهر.

وباختصار تجد الإسلام حاضراً في نفوس أتباعه عن

طريق آدابه وأخلاقه وشعائره وشرائعه وتوجيهاته وعقائده حضوراً مكثفاً لا تستطيعه أية عقيدة أخرى، ولا ينبغي لها مهما كانت شموليتها، وإلى مثل هذا أشار المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون حينما قال:

«لقد كان الإسلام شمولياً إلى الحد الأقصى: كان يوجه مبدئياً كل أعمال وأفكار أتباعه وكانت البسملة عند مباشرة أي نوع من الأعمال حتى البسيطة منها ترمز إلى هذه الهيمنة مثلاً، كما أن الاعتقاد بشمولية العقيدة والمنهج كانت ترمز إلى تلك الهيمنة... فكل فعل وإن كان ينبع من حاجات اجتماعية (بيولوجية) أو من حقول النشاط الاجتماعي، والتي هي خارج الدائرة الدينية عند ثقافات أخرى؛ إنما كان يجري تعليلها انطلاقاً من النظام العقيدي (الأيدلوجي)، ويدمج به ويخضع لتنظيمه، وكان يستبعد أي عمل أو مؤسسة أو فكرة من أصل غريب، أو يدمج أو يُؤسْلم».

٣ ـ شروط نجاح أية عقيدة أو فكرة تتلخص في ثلاثة عناصر:

١ ـ الاستجابة للحاجيات العقلية والفكرية للإنسان، وذلك بأن تكون قادرة على الإقناع الفكري والمنطقي؛ بتقديم أجوبة مقنعة حول مختلف الأسئلة الوجودية الكبرى؛ التي ترتبط بالإنسان كل إنسان، لا بد أن تقدم

هذه العقيدة لهذا الإنسان الاطمئنان الروحي والاستقرار الفكري، وتبعده عن ما يمكن تسميته بحالة القلق الوجودي المدمّر للاستقرار الروحي.

لقد ظن العقل الغربي في ظل نشوة الاختراعات العلمية والانطلاقة الصناعية المذهلة؛ أن المادية الملحدة قد انتصرت على الإيمان، وأن العلم قد انتصر على الاعتقاد، وأنه حسم جميع المشكلات الوجودية. بينما يبيّنُ تطور الفكر الغربي اللاحق أنه لم يزد تلك الأسئلة الوجودية إلا تعميقاً وإلحاحاً، بل لقد كان من نتائج تلك الانطلاقة المادية المتطرفة ذات الجناح الواحد؛ أن ظهرت حركات تديّن متطرفة غربية في أوساط الشباب الأوروبي؛ نتيجة كونه أخطأ التدين الصحيح.

وحركات التغيير في المنطقة العربية الإسلامية التي استلهمت قيمتها التغيرية الغربية بخلفياتها العلمانية، وأسقطت عقدة الصراع على عقيدتها، فأعلنت نهاية الفكر الغيبي!. واستغنت عن علاقة الأرض بالسماء على غرار الفكر الغربي؛ لم تجد ما وجده الإنسان الغربي من عزاء في كشوفات العلم، وابتكارات التكنولوجيا وتسهيلات المادة، وامتيازات الضمانات الاجتماعية الخيالية؛ كما لم تستطع أن تقدم البديل العقائدي الذي يلبي الحاجات العقلية والفطرية للإنسان، فتقلّب المثقف العربي المغترب

بين تجارب فلسفية مختلفة؛ من النفعية إلى المادية الملحدة إلى الوجودية المضطربة؛ حيث يثبت اليوم ما تنكّر له بالأمس، ومن ثم كانت أزمة الأفكار المتناقضة المشوّشة في العالم العربي، وكانت أزمة الإنسان العربي وسط هذا الخليط المشوّش من الأفكار والمبادئ؛ كلٌ يشدُّه إلى طرف يناقض الأطراف الأخرى، حتى أصبحت المنطقة العربية ميدان صراع داخلي انعكست عليها سلبيات المبادئ والأفكار؛ فأوجدت من الدمار والخسران النفسي والعقلي والمادي ما لا يحصيه إلا الله، ولا تزال عملية الاجترار سادرة في غيّها على الرغم من النكبات الطاحنة والنتائج الفاسدة والخسارات المهلكة!.

ونحن على يقين أن حركات التغيير المنتمية إلى منهج الإسلام أقدر من حركات التغريب؛ على تحريك الإنسان المسلم بإيجابية، لأنها تخاطبه من خلال عقيدة التوحيد ببساطتها ووضوحها، وبما يؤمن به من مبادئ وقيم... ومناهجها منسجمة مع قيمه وأخلاقه وعقيدته.

بينما بدأ يظهر فشل المناهج الغربية وفلسفاتها المادية التي تَقلَّب بينها المثقف العربي المستلب؛ في توفير الاطمئنان الروحي والفكري؛ فضلاً عن الاستقرار في النظم الإصلاحية؛ التي تكفل له عيشاً كريماً، وحرية واحتراماً إنسانياً.

٢ ـ تحقيق آمال الإنسان في العدل والمساواة والكرامة الإنسانية:

فإقامة التوازن الدقيق في تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، وإنصاف المستضعفين منهم وفق المنهج الرباني في العدل والمساواة والكرامة الإنسانية، لا يكون على حساب الحاجات الفكرية والعقلية والفطرية عند الإنسان. وذلك ما تميز به المنهج الرباني.

ذلك أنه حينما ينفصل منهج التغيير الاجتماعي عن العقيدة، يفقد ذلك المنهج مصدر التعبئة النفسية؛ الذي يتيح للإنسان قدرة هائلة على التحدي، والتحمل في سبيل تحقيق الآمال في العدل الاجتماعي والكرامة الإنسانية، أما حينما يرتبط بها؛ فإن العمل في سبيل القضية الاجتماعية يصبح إحدى صور الالتزام بالعقيدة؛ دون أن يكون الهدف منها هو الغنيمة الفردية، والمكاسب الشخصية، أو حتى مشاهدة يوم النصر، فقد تقصر الأعمار وتنتهي الآمال، وتمر الأجيال من وراء الأجيال دون أن تتحقق الآمال في العدالة الاجتماعية أحياناً.

ولذلك كان لا بد ـ كي تنجح حركة التغيير الاجتماعي ـ أن تكون قادرة على مخاطبة الإنسان المجنّد في سبيل ذلك التغيير في منطقة اندفاعه العقائدي، وذلك من خلال اعتماد وتوضيح النقاط التالية:

أ ـ ضرورة الربط بين العقيدة والمنهج الاجتماعي:

فحينما تريد أية حركة تغيير اجتماعي أن تحقق أهدافها بفصل القضية الاجتماعية عن العقيدة، أو على أساس عقيدة لا تستجيب لحاجات الإنسان العقلية والفكرية؛ فإنها تفشل في تجنيد الجماهير، ويفتقر برنامجها الاجتماعي الحماس والاستجابة الفكرية والنفسية الضرورية لإنجاحه.

ويصدق هذا أكثر ما يصدق على حركات التغيير غير المنتمية إلى الإسلام في المنطقة الإسلامية، فقد أرادت تحقيق التغيير بدون الالتفات إلى العقيدة الإسلامية، بل في كثير من الأحيان من خلال إعلان الحرب على العقيدة الإسلامية، واعتقدت النخبة المثقفة الواقعة تحت التأثير المباشر للنظرة الغربية للدين؛ أن معركة التغيير الاجتماعي تبتدئ بالمعركة ضد الدين، ففقدت بذلك مصدراً من مصادر التعبئة النفسية للجماهير، بل فقدت أيضاً تعاطفها.

ب ـ انتهازية المناهج العلمانية:

ولما شعرت هذه النخبة بالعزلة تطوّقها، وانقطع تواصلها بالجماهير، بدأت تعترف للدين اعترافاً انتهازياً بالقدرة على تحريك الجماهير في مواجهة الاحتلال الأجنبي، وفي مواجهة أشكال من السيطرة الرأسمالية.

وفي هذا الصدد نورد كلام الأمين العام للحزب

الشيوعي اللبناني الذي يقول: «واللقاء هذا بين الماركسيين اللينيين، ودعاة الفكر الديني يمكن أن يجري حول الجوانب الإيجابية لهذا الفكر، وخاصة في ناحيتين:

أولاهما: في إطار المهام الوطنية، وقدرة الفكر الديني على تعبئة الجماهير الواسعة حدّاً في النضال ضد السيطرة الأجنبية؛ مثل: دور الحوافز الدينية في النهوض الوطني العارم في لبنان ضد الاحتلال.

وثانيهما: دور الدين في تهديم أشكال من السيطرة للنظام الرأسمالي؛ في ظروف التخلف الاقتصادي والاجتماعي في المجتمعات الشبيهة بمجتمعاتنا»، إلا أنه سرعان ما يستدرك قائلاً: «غير أن هذا النجاح الفوقي لا يسمح لأحد أن يستنتج فيزعم أن هذا الفكر هو:

أولاً: نقيض فيما يطرحه للفكر الذي تم إسقاطه.

وثانياً: هل هو قادر على إنجاز الجانب الإيجابي من الثورة، ألا وهو بناء النظام الجديد على أنقاض النظام المنهار!!...».

لقد بدأت النخب المثقفة العلمانية تقرّ بعجز مناهجها وأفكارها أيضاً عن تحقيق التغيير المنشود، وظهرت دعوات لإعادة تقييم الموقف من الدّين، وتعترف له اعترافاً انتهازياً بقدرته الهائلة على تجنيد الجماهير. غير أن هذا الاعتراف لا يعدو أن يكون شبيهاً باعترافها بدور

الدين المسيحي، ورجالاته في مجتمعات أمريكا الجنوبية، وشتان بين عقيدة التوحيد السماوية، وعقيدة التثليث البشرية، وشتان بين دين الإسلام ذي البعد الإنساني الذي يتناول نشاطات الإنسان في كل زمان ومكان، وبين عقيدة تدعو الإنسان أن يدع «ما لله وما لقيصر لقيصر» فانحصرت بذلك في طقوس ميتة تمارس ساعة في الأسبوع؛ بعيداً عن آمال المجتمع وهمومه، وأن تتملق لأماني الإنسان، بل لأهوائه وشهواته كذلك.

وشتان بين البعد الاجتماعي المنبثق انبثاقاً ذاتياً أصيلاً من هذه العقيدة الربانية الشاملة، وبين عقيدة مشوّهة تتملّق أهواء البشر، وتجعل من البشر آلهة ينوبون عن الله في المغفرة.

ج - أهمية الشرط الثقافي في نجاح الطرح الاجتماعي:

إن الإسلام باعتباره المنهج الرباني الذي ارتضاه العليم الخبير لعباده، وهو أعلم بما يصلح حالهم؛ يقدم الأصول العامة لطرح اجتماعي متكامل في العدل والمساواة والكرامة الإنسانية، وتهيئ عقيدة التوحيد بفطريتها واستجابتها للحاجات العقلية للإنسان؛ الشرط الثقافي والضروري لنجاح ذلك الطرح الاجتماعي، فلا بد لكل نظرية اجتماعية من أساس ثقافي؛ يوفر لها شروط النجاح، ويجعلها منسجمة مع شخصية الإنسان المنطقية، ووجدانه وتاريخه.

كما يقدم التراث الفقهي الزاخر في الميدان الاجتماعي معيناً لا ينضب؛ من الاجتهادات القابلة في بعض جزئياتها للتطوير المعاصر؛ ضمن الأُطر العامة من النصوص الضابطة للمنهج، مما يوفر إمكانيات هائلة لتقديم منهج اجتماعي ينبثق من حقائق العقيدة وأخلاقها، ومقاصد الشريعة العامة وغاياتها، ومن معطيات التاريخ، ويراعي بنفس الوقت خصوصيات العصر وحاجات الناس فيه.

د - القدرة التشريعية الإسلامية على استيعاب المتغيرات الاجتماعية:

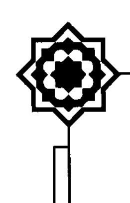
ذلك المجال الاجتهادي الفقهي في الإسلام هو مجال رحب مرن؛ يتعامل بوعي مع الواقع المتغير، وينضبط بأصول فقهية تراعي مقاصد الشريعة، وغاياتها في تحقيق مصلحة الإنسان الأكيدة على وجه الأرض، وآمال الإنسان في العدل الاجتماعي والكرامة الإنسانية.

وينبغي أن لا تحسب على المنهج الإسلامي بعض الصور المشوهة للتطبيق، والمحسوبة على الإسلام جهلاً أو زوراً، لأن الإسلام بمقاييسه الربانية سرعان ما يُدينها، وقليلاً من البصر في تناقضاتها تعرّيها وتفضحها، ونحن هنا لا نعتبر مثل هذه المظاهر دليلاً للمنهج؛ بقدر ما هي صورة من صور التخلف والانتهازية باسم الإسلام؛ فلا

يعنينا من أمرها شيء، لأننا نتكلم عن الصورة الحقيقية التي نتطلع إليها.

وقد آن الأوان أن يفتح اليسار والحركات التغريبية والقومية حواراً صادقاً وجادّاً مع الإسلام؛ بعيداً عن أسلوب «التقية الفكرية» الذي فرضه اصطدام هذه الحركات بقوة العقيدة الإسلامية، وليكونوا واقعيين ومنطقيين في انتمائهم ومواقفهم، فيكفي ما حدث من انتهاك لمبادئ الأمة وقيمها، ويكفي ما حدث من انهيار لقواها وتفتيت لجهودها.

ولعل الدروس التي تعلّموها من خلال الواقع الفاشل للتطبيقات الهجينة المستوردة، كفيلة بإيقاظهم من أوهامهم.



رصيد الامتداد الجهادي عبر التاريخ الإنساني

يوفر هذا المنهج الإسلامي على رصيد من الامتداد الجهادي في المكان والزمان، في الحاضر والمستقبل؛ فيشعر المجاهد بأن أفواجاً من البشرية شاركته، وتشاركه نفس الآمال والأحاسيس الجهادية، فلا يحسّ بالوحشية في الطريق، وتضاف هذه القوة المعنوية التي تسكبها في النفس هذه الأحاسيس؛ إلى قوة الاطمئنان الروحي والاستقرار الفكري؛ اللذين ينشآن من استجابة تلك العقيدة للحاجات الفكرية، والعقلية والفطرية للإنسان المجاهد في سبيلها.

وقد افتقرت المناهج التي جربت في بلادنا العربية لهذا الامتداد العاطفي التاريخي، وكان الداعون لها مُنْبَتّي الأصول، ومجتثّي الجذور، فافتقد نضالهم الأصالة التاريخية المطلوبة.

إن المنهج الاشتراكي الماركسي مثلاً باعتباره من أكبر المناهج التي جندت أنصاراً ومناضلين لا يمتلك من التجربة التاريخية، ومن الرصيد النضالي ما تملكه عقيدة

الإسلام في المنطقة، ولعل هذا العامل من أهم العوامل التي تفسر أزمة (الأيديولوجيا) الماركسية، ومبادئ التغريب في العالم الإسلامي.

أما الحركات القومية فهي ليست ذات مضامين معقولة دون المنهج الإسلامي.

إننا هنا أمام حقيقة كبرى من فقه التعبئة الجهادية، وقد شغلت الحقيقة التربوية مساحة مهمة من القصص القرآني، فقد كان ذلك القصص تثبيتاً لرسول الله ﷺ وللعصبة المؤمنة من حوله، بقوله تعالى في سورة هود بعد استعراض حشد هائل من التجارب الدعوية السابقة مع الأنبياء والمؤمنين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

ثم في سورة يوسف يعقب على أحداث القصة قائلاً: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

أ ـ تاريخ القيم الإسلامية ممتد عبر امتداد التاريخ الإنساني:

إن المؤمن ليس وحده في الطريق، بل إن دعوته ليست إلا حلقة في سلسلة حلقاتها الأخرى؛ تتمثل في أفواج الأنبياء والدعوات الإسلامية السابقة له، ليست

دعوته دعوة ظرفية، بل هي دعوة أصيلة في التاريخ البشري، فالحقيقة التي تحملها هذه الدعوة حقيقة واحدة، والرسالة التي تبشر بها رسالة واحدة، ثم إن طبيعة الانحراف التي جاءت هذه الدعوة لتقويمه وإصلاحه طبيعة واحدة، فللنفس المخاطبة بالإيمان هي ذاتها مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة، وتغيرت الظروف والحضارات والحاجات، فحاجة الإنسان المتحضر اليوم لعقيدة التوحيد هي نفس حاجة الإنسان البدائي لها في فجر التاريخ، وحاجة إنسان اليوم إلى قيم العدالة والمساواة، وأخلاق التواضع والصدق والرحمة والأمانة وغيرها من الأخلاق التي هي من لوازم لا إله إلا الله، وحاجته إلى نبذ الكبر والاستكبار وغيرها من آفات النفس البشرية هي نفس حاجة الإنسان البدائي لها، وحاجة الإنسان المتحضّر لنبذ الأصنام ـ المادية والمعنوية ـ أي المعبودات من دون الله هي نفس حاجة الإنسان البدوي والبدائي لها في أي مكان وأي زمان، ولإن كانت أصنام اليوم قد اتخذت أشكالاً وألواناً جديدة من الآلهة المتحكّمة؛ لكنها لم تخرج عن كونها أصناماً تعبد من دون الله، حينما تطاع وتؤلّه ويُنبذ ما عداها من القيم.

ب ـ عالمية المنهج الإسلامي:

ولما كانت حقيقة الدعوة ومضمونها واحداً، وكان

انحراف المنحرفين عنها والمقاومين لها واحداً، تجد القرآن الكريم في سورة إبراهيم يجمع الأنبياء كلهم، والمعرضين من أقوامهم في صعيد واحد على تباعد المكان والزمان، بل يتلاشى الزمان والمكان، وتبرز حقيقة وحدة الرسالة، ووحدة الاعتراضات، ووحدة أساليب التكذيب، والتصدّي، بل حتى وحدة الحركات الجسدية المعبرة عن الإمعان في الإعراض والتكذيب، ووحدة مصير المؤمنين أيضاً، ووحدة مصير المكذبين. فتأمل مثلاً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ

ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم].

نفس القول ونفس الدعوة تتكرر على لسان كل رسول، ونفس المواقف يقفها المعرضون عن دعوة الحق، ونفس الكيد والمكر والإخراج والحرص على عقيدة الآباء والأجداد، ونفس الوعد الذي وعدت به دعوات الأنبياء، وتابعيهم ممن خاف مقام الله وخاف وعيده.

ج ـ الانحسار الظرفي للمنهج الإسلامي:

وهكذا يحسّ المؤمن وهو يتلو كتاب ربه أن دعوته ليست بِدَعاً من الدعوات، وأنه ليس وحيداً في طريق الابتلاء والاعتراض الذي قد يصيب دعوته حيناً، وأن ذلك الانحسار الظرفي ليس دليلاً على الهزيمة المطلقة، بل هي السنن التي تحكم طريق الدعوات، وتخضع لها علاقة تجمع الدعاة وتجمع المعرضين: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ويقول تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

وقد كان الرسول ﷺ هو الآخر يحيل إلى التجارب السابقة دائماً، حينما كانت نفوس أصحابه تضيق بالابتلاء؛ كما في حديث (خباب بن الأرت) الذي جاء إلى رسول الله ﷺ مع بعض الصحابة يشكون إليه من شدة ما يلاقونه من ابتلاء.

فقد روى البخاري [(٦٩٤٣)] عن خَبّاب بن الأرت رضي الله عنه أنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُردةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض حفرة فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما يصدّه ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت؛ لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**».

د ـ افتراق السلطان عن القرآن:

وقد تنبأ الرسول ﷺ في حديث يشير فيه إلى افتراق السلطان عن القرآن... وذلك يعني مرحلة من الاستبداد السياسي، وما يتبع ذلك من إضلال وإذلال وقتل وتقتيل، وقد أحال الرسول ﷺ إلى تجربة أصحاب عيسى، وأمر أن يصنعوا ما صنع أصحاب عيسى ابن مريم «**نُشِّروا بالمناشير، وحملوا على الخشب. موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله**»[1].

غير أن أكبر رصيد تجريبي بالنسبة للأمة الإسلامية، وأكبر عدة معنوية ناشئة عن الإحساس بالامتداد الجهادي

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» من رواية معاذ بن جبل.

يجدها المؤمن في سيرة رسول الله ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

ذلك أن السيرة النبوية تقدم أنموذجاً تطبيقياً متميزاً ومتكاملاً لمفاهيم الإسلام وقيمه ودعوته، وأسس التعامل الحكيم بصوره المختلفة؛ سواء في مرحلة الضعف والتكتم، أم في مرحلة الجهر بالدعوة والقوة، أم في غيرها من الحالات، إنها تقدم أنموذجاً كاملاً لمراحل التطور المفترضة في العمل الإسلامي ـ بمختلف احتمالاتها ـ مما يجعلها معيناً هائلاً لا ينضب؛ من قيم التعامل مع مختلف أشكال الوقائع، التي يمكن أن تعايشها الدعوة الإسلامية المعاصرة.

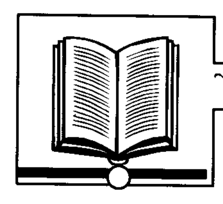
٤ ـ طريق الدعوة إلى المنهج الإسلامي وقدرته على التغيير الإيجابي:

مرّت الدعوة الإسلامية بمرحلة التربية والإعداد، ثم بمرحلة مجابهة المخالفين بحقائق الدعوة، وإنك لتجد في هذه الحقبة نماذج من الاستكبار على الحق والإصرار على الكفر، وعقيدة الآباء والأجداد، ونماذج من جميع أساليب المواجهة المفترضة والممكنة لدعوة الحق؛ انطلاقاً من أسلوب المساومة وسياسة المفاوضات، ومروراً بأساليب الحصار الاقتصادي والإيذاء البدني،

والإخراج من الديار، وانتهاءً بمحاولات التصفية الجسدية، ثم إنك ستجد في الطرف الآخر نماذج من الصبر على التواءات النفس وضلالاتها، ونماذج من التحمل والدفع بالتي هي أحسن، فانقلب الأعداء إلى أولياء مُنافِحينَ عن الدعوة، ومضحّين في سبيلها بالغالي والنفيس، وستجد أيضاً نماذج من الحكمة في التعامل مع الخصوم، فقد لاين ﷺ وتحالف، واشتد وخالف، وضرب بحزم عند الضرورة، واتّخذ لكل ظرف ما يناسبه من الوسائل، وأعدّ لكل مرحلة ما يلزم لها من الإمكانيات؛ كل ذلك بحكمة بالغة بحيث كان يخرج من نصر إلى نصر أكبر منه؛ فكانت سيرته نموذج القدوة الإسلامية ومثلها الأعلى...

فحركة الدعوة إذن ـ وهي ترجع إلى سيرة نبيها ـ تمتلك أكثر مما يمتلك غيرها، تمتلك رصيداً هائلاً من التجربة مليئاً بقيم التغيير ووسائله وأساليبه، وحركة الدعوة وهي تعمل وتتحرك لا تنطلق من فراغ، ولا تقف على فراغ، بل تنطلق ـ وهي ترجع إلى سيرة نبيها ـ من أصول نظرية صالحة لكل زمان ومكان؛ لأنها تواجه النفس البشرية الواحدة بانحرافاتها الواحدة رغم اختلاف ألوانها وأشكالها وصورها باختلاف الأزمنة والأمكنة، ثم هي تنطلق أيضاً من تجارب عملية ناجحة لتلك الأصول،

تجارب متمثلة بالدرجة الأولى في سيرته ﷺ، وفي سير الدعوات الإسلامية عبر مختلف مراحل التاريخ الإنساني الإسلامي، ولذلك كانت حركات الدعوة الإسلامية المعاصرة أقدر من غيرها على مخاطبة الشعوب المسلمة، وأقدر على تجنيدها وتحريكها في معارك التحرير الوطني، ومقاومة الاستكبار بشتى ألوانه وصوره؛ بينما فشلت حركات التغريب في صياغة أماني الشعوب الإسلامية، والتعبير عنها فضلاً عن تحريكها، وتجنيدها وتعبئتها بغية تحقيق الآمال المنشودة.



الفصل الرابع

المنهج الإسلامي يسعى للتغيير وفق السنن المشروعة

تحكم مسيرة التغيير سنن ثابتة لا بد من فهمها، ومن ثم وضع ناظم فكري وعملي يوجّه الطاقات باتجاه واحد نحو تحقيق الأهداف التي ترسمها خطة عمل مدروسة على أصول مبنية على فهم للدين، وفهم للعصر...

ولقد كان من جملة أسباب إحباط الحركات الإسلامية في عصرنا.. أنها كانت تمضي في عملها الإسلامي دونما خطة عمل واضحة تحدد ـ منذ البداية ـ الأهداف وفق متطلبات الشرع، وحسب الإمكانات المتاحة لها، والظروف المحيطة بها.. على مستوى المكان والزمان (ورحم الله امرءاً عرف زمانه.. واستقامت طريقته). فكانت أن نشأت في تلك الحركات مدارس فكرية مختلفة ومتباينة بل كثيراً ما كانت متناقضة... وكل هذا بسبب عدم وجود (خطة) عمل شاملة وواضحة مبنية على فهم للشرع.. وفهم للعصر.. ففي حين كان يندفع

العمل الإسلامي نحو التكامل ـ كانت صفوفه ـ وبدرجة مماثلة إلى حد كبير ـ تصاب بالتآكل الداخلي وتنشأ فيها الانشقاقات والنزاعات مما قد يؤدي في النهاية بالعمل إلى الضياع والإفلاس...

١ ـ الأهداف الرئيسية للمنهج الإسلامي:

من هنا.. ومما سبق تلخيصه يبدو لنا أن (الأهداف الرئيسية) لهذا التوجه هي:

أولاً: إعداد الفرد الرباني.. الذي يتذوق معاني العبودية وتهيمن عليه مشاعر التقوى، على صعيد الدعوة الإسلامية، والمواطن الصالح على صعيد المجتمع والأمة.

ثانياً: مد الجسور مع الأمة لإعادة صياغة ضميرها وحياتها بالإسلام مرة أخرى.

ثالثاً: وضع خطة عمل شاملة للطليعة الإسلامية تتمكن من خلالها، أو تمكنها، في نهاية المطاف من تحقيق تطبيق الشريعة الإسلامية التي لا يقتصر نفعها على المسلمين فقط؛ بل تتعداهم إلى كل إنسان مهما كان انتماؤه الديني أو المذهبي أو العرقي.

أ ـ الشخصية الإسلامية: وإعداد الفرد الرباني:

الفرد الرباني هو المرتكز الأساسي لصلاح كل مجتمع، ولا يكون ذلك إلا بالعمل على إعادة التوازن في

تربية الشخصية الإسلامية، ولا تتشكل الشخصية إسلامياً إلا إذا تكونت لدى الفرد: عقلية إسلامية، ونفسية إسلامية، وحسن أداء والتزام.

ب ـ أما العقلية الإسلامية:

فهي التي تفكر على أساس الإسلام؛ أي تجعل الإسلام وحده هو المقياس الوحيد للأفكار عن الحياة والإنسان والكون.

ج ـ وأما النفسية الإسلامية:

فهي التي تجعل ميولها كلها على أساس الإسلام وتبعاً لما جاء فيه، أي هي التي تمزج الدوافع الفطرية بالمفاهيم الإسلامية عن الوقائع والحياة، فتصبح الميول إسلامية، ويكون الإسلام هو المقياس العام للاشباعات وللحب والكره، وللإقبال على الأشياء والأفعال أو النفور منها.

وبهذه العقلية وهذه النفسية تتكون لدى الفرد شخصية إسلامية بغض النظر عن كونه عالماً أو عبقرياً أو فيلسوفاً أو إنساناً عادياً (أمِّياً) لا يقرأ ولا يكتب.

د ـ تكاملية الشخصية الإسلامية:

ولكن ذلك لا يعني استمرارية هذا التشكيل، ولا يضمن بقاء هذه الشخصية متكاملة إسلامياً، فقد يتحول الإنسان أو يضل، وقد يفسق أو يعصي، ولذلك كانت

تكاملية الشخصية الإسلامية مهمة فردية واجتماعية معاً، بل كانت استمرارية هذه التكاملية هي جوهر الأمانة التي حُمّلت للإنسان وأنيطت به. فهي تتطلب فعالية العملية الاجتماعية التربوية واستمراريتها، كما تتطلب فعالية عمليات التثقيف بالثقافة الإسلامية واستمراريتها، وذلك من أجل الصيانة العقلية والنفسية معاً، ومن أجل السمو بها سمواً يتجسد في الأداء السلوكي للشخصية، وهذا من صلب العملية المجتمعية التربوية ومن صلب مهمة القيادة في الجماعة الإسلامية.

هـ - أهمية دور المجتمع في تكوين الشخصية الإسلامية:

فالإنسان لا تتحقق لديه شخصية إسلامية متكاملة ومتوازنة، ولا يحقق استخلافه المطلوب إلا في مجتمع إسلامي ذي كيان فاعل؛ لأن التطبيق الكامل لدلالات النصوص لا تتأتى للفرد إلا إذا كان في مجتمع إسلامي، يتبنى الإسلام طريقة في الحياة وفكراً منهجياً، يتربى على أساسه الناشئ وتخاطب به المجتمعات الأخرى. ولذلك كان المجتمع الإسلامي في تحركه وفي قيادته، وكانت العملية التربوية في فلسفتها وأدائها وسيلة لغاية هي: إيجاد الإيمان الإسلامي في الشخصية الإنسانية، وصيانة هذا الإيمان، باعتبار أن هذه الغاية هي الأمانة التي حملها الإنسان. وما لم تتشكل الشخصية الإسلامية على هذا

النحو فقد تظهر أنماط من شخصيات تنتمي إلى الإسلام بصورة مختلفة ومختلة؛ ومنها:

و ـ صور من الشخصية المختلة إسلامياً:

١ ـ **إذا كان الترابط بين** المفاهيم وأنماط السلوك الظاهري غير واضح، أو كان قابلاً للانفصال، فإن الفرد يكون مسلماً لا شخصية إسلامية، وتكوّن نقاط الانقطاع في السلوك ثغرات، لكنها لا تكون خروجاً عن الإسلام.

٢ ـ **وأما إذا طرأ خلل** على العقيدة فإن هذا يخرج الشخصية من نطاق الإسلام، ولذلك كانت الشعائر التعبدية والعبادات والتعلم والتثقف عمليات فردية في حقيقتها، وفي اتجاهها وإن اتخذت شكلاً مجتمعياً.

٣ ـ **أما إذا كان المسلم** يبني أفعاله على أساس العادة أو العرف، وعلى ما يقوله أو يمارسه أبواه أو مجاراة الناس، أو على أساس المصلحة، أو المنفعة الشخصية أو على أساس مصلحة الوطن أو القوم بعقلية غير ملتزمة بالإسلام، فإنه بذلك يجعل واحدة من هذه الأمور أو أكثر أساساً لتفكيره وسلوكه وبهذا يدخل الخلل إلى شخصيته، ولا بد من معالجته على المستوى الفردي، وعلى المستوى الجماعي معالجة مهتدية وإيجابية.

ولا بد أن تتضمن العملية التربوية مثل هذه المعالجات سواءٌ وجد المناخ الإسلامي أو لم يوجد،

فالمواقف التعليمية نفسها ينبغي أن تصوغ وتصمم مثل هذه المعالجات، حتى يمكن الوصول إلى مستوى القدرة على إيجاد المناخ الإسلامي في المجتمع.

ز ـ الإحسان في الأداء:

إن القمة التي تتجه إليها العملية التربوية هي إحسان الأداء في كل موقف، أي إتقان الأداء وإخلاص النية فيه لله تعالى؛ وذلك ببذل أقصى الجهد والطاقة والفهم والوعي في الأداء.

وهي مرتبة يتصل بها خلف الأمة بسلفها، وتتصل به الشخصية الإنسانية بقدوتها، كما تتصل به سلسلة النبوات، ويتحقق الاستخلاف في الأرض على الوجه الذي أراده الله.

فإذا رافق الإحسان عمليات المخاطبة والتفكير والتكليف والالتزام، ورافق عمليات اكتساب المعرفة والتعليم والتعلم، وإذا رافق أشكال الأداء على مستوى الفرد، وعلى مستوى الجماعة وعلى مستوى القيادة، فإن القصد من الرسالة الإسلامية يتحقق شريطة أن يستمر ذلك وفي نفس الاتجاه، وأن يستغرق إمكانات التفرد والإبداع فيه.

ولذلك كانت رعاية المناخ الذي يتيح الوصول إلى

مرتبة الإحسان، أو يدخل عنصر الإحسان جزءاً من كل أداء، وهي من مهام القيادة الإسلامية، فهي مطالبة بأن تيسر ذلك لكل فرد سواء من حيث المناخ أو من حيث الوسائل أو من حيث الأمن والرخاء، بحيث يكثر الصالحون الذين لا يرضون لعملهم إلا أن يبلغ مستوى الإحسان، وبذلك تستثمر طاقات الإنسان على أكمل وجه.

كتب الدكتور يوسف إدريس ـ الكاتب والأديب المعروف ـ خاطرة في صحيفة الأهرام القاهرية في عددها المنشور يوم ٨/ ٢/ ١٩٨٨م. . . روى فيها كيف أخذه صديقه الثري إلى أحد مصانع الأثاث بنيّة شراء مطبخ لابنته التي ستتزوج، وعن مفاجأته عندما وجد أن هذا المصنع المقام بأحدث الطرق العلمية يملكه شاب مهندس ممن يؤمنون بالتيار الإسلامي الجديد ـ كما يقول ـ وكذلك جميع العاملين في هذا المصنع، لهم ذقون ـ يقصد لحى ـ وساعة صلاة العصر كان كلٌّ منهم يذهب ليصلي، ثم يذهب بعده زميله وهكذا، ويضيف الدكتور إدريس: وكما علمت فإن آلات النجارة نفسها فيها كمبيوتر يقوم بكل العمل، والشباب الذين يعملون فيه نشطون مؤدبون، صامتون أغلب الوقت وكأنك في مسجد، وكأن العمل عبادة، (وهو عبادة فعلاً إذا استقامت النية)، وأدبهم وطريقتهم في المعاملة تفوق الوصف، وانضباطهم يفوق

الحد، وثقافتهم ودرايتهم واسعة ودقيقة تماماً، ثم يقول: «وأحسست بفخر شديد، أدركت لماذا كنت أغضب حين أقرأ وأرى وأسمع الجعجعة الميكروفونية باسم الدين الحنيف، كنت أغضب لأني أعلم أن الإسلام ليس دين التعصب الأعمى، المدجج بالسلاح وبالرصاص لمن يتوهم أنهم معارضوه أو مخالفوه، وإنما دين الحجة والمنطق والعلم والموعظة الحسنة». أحسست بفخر شديد، هؤلاء شبان مؤمنون مسلمون، ذلك الإسلام المفرح الهادف إلى إتقان كل شيء من أول التصرف في الطريق إلى العمل إلى العبادة، الإسلام القائل: «**إنَّ اللهَ يُحبُّ إذا عَمِلَ أحدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يتقنه**»[1]، ثم يقول: «لم أكن أريد أن أغادر هذا المكان الجميل الذي لم أعرف صاحبه ومديره ولا الرئيس من المرؤوس، فكلٌّ منصرف إلى عمله يجدُّ فيه ويتقنه بوازع من ضمير حي، وليس عن خوف عقاب»، ثم يطلق الدكتور إدريس صيحة، حري بجماهير المثقفين أن يسمعوها، يقول: «اللهم إذا كان التيار الإسلامي هكذا فأنا أول المنظمين، فإذا شئتم حزباً يبشر بهذا ويعمل به، يخاطب العقل فينا وينهانا عن

---

(١) حديث حسن، روته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (١٨٨٠).

الغوغائية، فخذوني معكم»[1].

ويتم إعداد الفرد المسلم بما يلي:

أ ـ معرفة الإيمان، وما يجب على المسلم اعتقاده وربط كل عمل يقوم به المسلم بعقيدته.

ب ـ معرفة أركان الإسلام... نظرياً وعملياً.

ج ـ معرفة الحلال والحرام... ومعرفة الثقافة الإسلامية والأخلاق الإسلامية.

د ـ فهم روح التشريع الإسلامي... في المجالات المختلفة.

هـ ـ التوسع في المعرفة والتطبيق.. للنوافل والآداب.. حسب الاستطاعة.

و ـ المعرفة بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.. بما يوسع نطاق الرؤية الإسلامية، ويبرز إمكانية المثل الأعلى الواقعي للإسلام عبر التاريخ.

ثانياً: إعداد البيت المسلم:

أ ـ معرفة أحكام الإسلام الناظمة لعلاقة الرجل بالمرأة.

ب ـ معرفة دور المرأة في النشاطات المختلفة، وكيف يمكن النهوض بها لتحمل أعباء هذا الدور.

---

(١) «أرض الإسراء» ص٣٢.

ج ـ تحديد أهداف التربية للأولاد.. وما هي الأهداف الخاصة بالبنين أو البنات.

د ـ معرفة وسائل تحقيق أهداف تربية الأولاد.

ه ـ معرفة المؤشرات الخارجية في عملية التربية وتحديد الموقف منها، وتحديد دورها في التربية.

و ـ تحديد مفهوم البيت المسلم.. وكيف يمكن تحقيق (السكن والسكينة) وما هي الثقافة التي تعين المرأة والرجل على تكوين خلية اجتماعية صالحة.. وما هي المؤثرات الخارجية على البيت.. وكيف يمكن التعامل معها؟.

ز ـ تحديد المنهج التربوي للبنات ـ بما يكفل الطبيعة التي خلقهن الله عليها، ودورهن الذي رسمه الله لهن في بناء المجتمع والأمة.

ثالثاً: قضية المرأة:

وتبرز قضية المرأة باعتبارها ركناً أساسياً في البيت والمجتمع، والتي تستدعي مزيداً من المعالجة والدراسة على ضوء النصوص المعصومة بالوحي السماوي، بدون خضوع للأعراف المعوجة والعادات الشاذّة. ومما لا شك فيه أن تَبَذُّلَ النساء في هذا العصر بلغ حدَّ السفه، وهبط إلى درك سحيق من الحيوانية المبتذلة، وصيحات الوعاظ لوقف هذا التيار تذهب بدداً.. لماذا؟ لأن تناولهم لقضايا

المرأة مشوب بالغموض، أو الجهالة، مُتَّسم بالسلبية والعجز، محكوم بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان.

وأغلبهم لو أمكنتهم الفرص لرد المرأة إلى البيت، وغلق عليها الأبواب، وحرمها مختلف الحقوق المادية والأدبية، وجعلها القدم العرجاء للإنسانية السائرة، أو الجناح المكسور. والمسلمون في العصر الماضي خالفوا الإسلام مخالفة مستغربة في الطريقة التي تحيا بها المرأة.. فهم حرموها حق العبادة ـ بتعبير العصر الحديث ـ وحظروا عليها دخول المساجد مع أن صفوف النساء في بيوت الله كانت إحدى معالم المجتمع الإسلامي الأول[1].

وهم رفضوا أن يكون لها دور في إحقاق الحق وإبطال الباطل وصيانة الأمة بنشر المعروف وإنكار المنكر، مع أن الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. ولكن الفكرة التي سيطرت على أدمغة نفر من المتدينين هي عزل المرأة عن الدين والدنيا معاً، واجتياح كيانها الشخصي والمعنوي.

ولا تزال هذه الفكرة أملاً يحركهم ويحملهم على ترويج أحاديث موضوعة أو واهية، وتكذيب أحاديث

---

(١) الشيخ محمد الغزالي «هموم داعية».

صحيحة أو حسنة، وعلى تفسير القرآن الكريم بآراء لم يعرفها أئمته، ولا قام عليها مجتمع الأصحاب والتابعين، ومن عجب أن المرأة العربية ظهرت في بيعة العقبة الكبرى كما ظهرت مبايعة بعد فتح مكة، وقارب عدد النساء حينذاك ستمئة. وقد نتج عن هذا التفكير في قضية المرأة وعن التفكير المماثل لها في قضايا أخرى كثيرة أنْ ظُلِمَ الإسلام ظلماً شديداً وأُسيء به الظنُّ، وحُمِّلَ أوزار المتخلفين.

وإن إفلات النهضة النسائية من قيود الإسلام، يرجع إلى هذا العجز والغباء.

رابعاً: المجتمع الصالح:

المجتمع الصالح هو الذي ترتبط أفراده وأسره بقيم الإسلام العليا ومبادئه المثلى ويجعلها رسالة حياته ومحور وجوده.

وأهم القيم الإسلامية في هذا المقام هي:

١ - **التجمع على العقيدة**: فالمجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً قومياً وإقليمياً وإنما هو مجتمع عقائدي؛ مجتمع فكرة وعقيدة، وعقيدته هي الإسلام. فقد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة، أو ألوان مختلفة، أو طبقات، لكن هذا الاختلاف يذوب وينصهر أمام وحدة العقيدة.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠] فالمجتمع هذا مجتمع المؤمنين. والإيمان الإسلامي ليس مجرد شعار، أو دعوى، أو تعصب، وإنما هو حقيقة تستقرُّ في النفس ينبثق عنها سلوك ويصدقها عمل إيجابي.

وهذا الأمر لا يضر غير المسلمين، فإن الإسلام يحرص على تحقيق حرية العقيدة الدينية، كما يحرص على المساواة والعدالة بين المواطنين، بينما يشكل التاريخ العربي الإسلامي والثقافة واللغة أواصر قومية واجتماعية تعزز النسيج الوطني والرابطة العربية.

٢ ـ **احترام العمل الصالح** سواء كانت صيغته دينية كالصلاة والصيام والحج والعمرة والذكر والتلاوة والدعاء... أم دنيوياً كالسعي في طلب الرزق، وعمارة الأرض، ومنفعة الناس والإحسان إليهم، ولقد قرن القرآن الكريم الإيمان بالعمل الصالح في أكثر من سبعين مرة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف].

٣ ـ **الدعوة إلى الخير** وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليس يكفي أن يكون المرء صالحاً في خاصة نفسه غافلاً عن فساد غيره، بل الصالح من أصلح نفسه وحاول إصلاح غيره ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

٤ ـ تثبيت الفضائل الخلقية كلها في شتى جوانب الحياة ونشرها وحمايتها من العدل والإحسان والبر والتعاون على الخير، وقول الحق، والصبر ورعاية الضعيف، والأمانة والصدق والإخلاص.. وإلخ.

٥ ـ الجهاد في سبيل الله بجميع وسائله المتاحة بالقلم، والكلمة، واللسان؛ وذلك حماية للحق؛ وتثبيتاً للخير، وتأميناً لحرية العقيدة والدعوة، ومنعاً للفتنة، وصدّاً للطامعين، وتأديباً للناكثين، وإنقاذاً للمستضعفين.

خامساً: الوسائل التربوية والتطبيقية:

ويتميز الإسلام بوضوح مناهجه وطرقه التي وضعها للوصول إلى غايته المثلى، وأهدافه العليا ومنها:

١ ـ عبادات وشعائر تغذي الروح وتزكي النفس، وتربّي الإرادة، وتوحّد الاتجاه، وتدرّب الإنسان على كمال العبودية لرب العباد؛ وهي عبادات محددة لا تقبل الابتداع، ميسّرة لا تقبل التزمت، معتدلة لا تقبل التطرف، عميقة تهتم بالجوهر قبل المظهر. وهي: الصلاة والصوم والحج والزكاة، ومنها نوافل بالإضافة

إلى الفرائض، ومنها لسانية، وقلبية، وبدنية، ومالية.

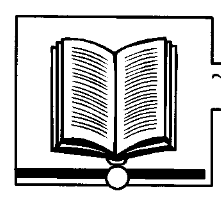
٢ ـ أخلاق وفضائل تقاوم الأنانية وتربي روح الغيرية، وتعنى بتزكية الفرد وتماسك المجتمع، وتستأصل شأفة الشر، وتشجع على كل خير.

٣ ـ آداب وتقاليد تربي الأذواق وتحمي الأخلاق، وتجمل الحياة، وتصنع وحدة المظهر مع سلامة المخبر. وهي تصوّب المسلم في حياته كلها: في مأكله، وملبسه، ومشربه، ومركبه، ويقظته، ومنامه، وسفره، وحضره، وخلوته، وجلسته.

٤ ـ نظم وتشريعات للفرد والجماعة فهي ترسم للفرد طريقه وتحدد له سلوكه، وتبين له الحلال من الحرام، وهي للأسرة دعائم، وركائز، وهي للجماعة ضوابط وموازين، مهمتها أن تقيم العدل وتردع الشر، وتحمي الإخاء، وتمنع التنازع وتصون الحقوق، وتحفظ على الناس أديانهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم ونسلهم، وهي الضروريات التي لا تقوم الحياة إلا بها كما تحفظ عليهم حاجيات الحياة وكمالياتها أيضاً، كل بحسب منزلته.

وقد قامت على خدمة هذه المناهج، وبيان أحكامها وحكمتها علوم ومعارف شتى في محيط الثقافة الإسلامية الرحبة؛ من تفسير وحديث وفقه وأصول وأخلاق وآداب.

ومهما يكن من اختلاف أهل الذكر في فروعها وجزئياتها؛ فإن أصولها الكلية وقواعدها الأساسية بَيِّنةٌ كالصبح، واضحةٌ كالشمس.



الفصل الخامس

توضيح المنهج الإسلامي باجتهادات فقهية معاصرة

وضع الإسلام الخطوط العريضة، والقواعد الكلية التي تتناول جزئيات كثيرة، واعتمدها في استنباط أحكام جزئية للمشكلات والأمور التي تحدث مجدداً كلما تقدم الزمن بالناس، واختلفت أمور حياتهم، وطرائق معيشتهم، وعوائد حياتهم، وهذه الخطوط مبثوثة في الكتاب والسنة لا يضلّ الإنسان في عصر إذا رجع إليهما، قال عليه الصلاة والسلام: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي**»[1].

وهذه القواعد تصلح لكل الأمم في جميع أدوار حياتها، وتطوراتها، وقَلَّما تختلف فيها أمة، بينما التفصيلات الجزئية والأحكام الفرعية التي تختلف باختلاف الناس في العصور. فقد ترك لكل أمة من يشرع

---

(١) حديث حسن؛ رواه مالك في «الموطأ» (١٦٦٢) مرسلاً، وهو في «مشكاة المصابيح» (١٨٦).

لها من ولاة الأمور من الأحكام والنظم ما يحقق مصالحها، ويدفع مثالبها بطريقة الاجتهاد ـ وهو بذل الوسع لمعرفة الحكم الشرعي ـ يقوم به علماء الأمة لمواجهة تطورات العصور.

ويعتمد في الاجتهاد من هذه القواعد على العدل والمصالح التي تدور الأحكام عليها وتقاس الأشباه بالأشباه والنظائر بالنظائر؛ مراعاة لطبيعة العقل الإنساني وتيسير استعماله وعدم التحجير عليه، وذلك وفق الضوابط الأساسية في فهم النص في حالة وجوده، أو مراعاة مقاصد الشريعة الإسلامية في حالة غيابه.

وقد جعل الإسلام درء المفاسد، وجلب المصالح علَّةٌ كبرى لكثير من الأحكام، مما يجعله وافياً بحاجات الناس في كل الأزمنة، صالحاً في كل الأمكنة.

وهذه القواعد تنظم علاقة الإنسان بالآخرين، وتدور أحكامها الجزئية المستنبطة منها مع العدل وجوداً وعدماً؛ تَغَيُّراً وتبديلاً؛ بخلاف أحكام العقيدة، والعبادات والأخلاق؛ فإنها تظل ثابتة؛ لأن النفس الإنسانية التي تعالجها ثابتة بصفتها الإنسانية لا تتغير.

أما المعاملات فإنها هي التي تتغير أحكامها باختلاف الزمان والمكان، واختلاف الأعراف والتطورات الاجتماعية، والاقتصادية وغيرها ضمن ضوابط الشريعة

العامة الثابتة في تحريم الحرام، وتحليل الحلال، ومراعاة العدالة والحرية والمساواة، وتحقيق مصالح الناس.

معنى التجديد في الإسلام:

وهذا هو معنى التجديد في الإسلام: أي استنباط أحكام جديدة لما يجد من المشكلات في الجزئيات التي تدور مع العلل والمصالح، وتتصدى لكل ما يدخل على أمور العقيدة الثابتة من انحرافات وخرافات وأوهام؛ لأن الإسلام قد كمل بهذه القواعد، وصلح لكل زمان ومكان بختم النبوات برسول الله ﷺ وعموم هذه الرسالة الإسلامية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومجال الاجتهاد مفتوح في سعة للعلماء لا للجهلاء، لكل من ملك أدوات الاجتهاد من العلم باللغة العربية، والقرآن الكريم مكّيه ومدنيه، ناسخه ومنسوخه، ومطلقه ومقيده، محكمه ومتشابهه، وعلم أسباب النزول، وأسلوب القرآن في أوامره ونواهيه، وما يتعلق به من أصول وأبحاث، وعلم من الحديث الشريف سنده ومتنه، وما يتعلق بالسنة من أحوال الرواة ودرجاتهم، وأنواع الحديث متواتره وصحيحه، وحسنه وضعيفه، وموضوعه، مع ضرورة الاطلاع على أصول الاجتهاد الأخرى، وذلك ممن كان في ذاته ذكي الفوائد، ورع التقوى، سواء أكان

في الاجتهاد المطلق، أو اجتهاد المذهب، أو اجتهاد الترجيح، أو اجتهاد المسألة.

ويبرز دور العقل باعتباره أداة الفهم والاستنباط، والإسلام يقدر العقل، ويقدم الشرع عليه، فالحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، والعقل هو الأداة التي ندرك بها حسن الحسن الذي دل عليه الشرع، وقبح القبيح الذي أرشد إليه الشرع، ونهى عنه، وهو الأداة التي تدرك بها علل الأحكام؛ فهو مظهر لحكم الشرع لا مثبت له، وبواسطته نستطيع أن نعرف حكماً للمسألة الجديدة التي نواجهها.

مراعاة الطبيعة الإنسانية في التشريع:

وقد راعى الإسلام الطبيعة الإنسانية فيما يلي:

١ - في وضع الخطوط العامة والقواعد الكلية حتى تكون مرنة الفروع عند الاجتهاد؛ لأن الطبيعة الإنسانية تستشرف التغيير وتعتمد على الحركة، وتأبى الاستمرار في رتابة الفكر؛ فترك باب الاجتهاد مفتوحاً لحركة الفكر، وعدم جموده بل مرونته ضمن الإطار الإسلامي العام، المتفق مع طبيعة الإنسان.

٢ - مراعاة تغيير العوائد والأعراف في تغيير الأحكام الشرعية الجزئية، وذلك ما لم يصادم نصاً صريحاً محكماً، وذلك استناداً إلى القواعد الشرعية، ولا ينكر تغيير الأحكام بتغير الأزمان.

٣ ـ رفع الحرج والمشقة عند تطبيق الأحكام، حيث تكون الرخص التي شرعت لإزالة الحرج، والتي قال فيها النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه**»[1]، ونعني بالمشقة: المشقة الزائدة التي تضيق بها الصدور، وتؤثر على الإنسان في بدنه، أو ماله، وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٤ ـ والأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نص بالتحريم.

والآن على ضوء هذا الاستعراض الإجمالي السريع لأبرز الخطوط العريضة لأهداف ومجالات المنهج الإسلامي؛ لا بد أن ننبه، ونحن في إطار استيعاب النظرية من الناحية التطبيقية إلى ملاحظات وأوليات:

١ ـ متاعب الدعاة:

أمام المنهج الإسلامي يبرز مصدران للمتاعب:

أ ـ أسباب التردي المتوارثة من تقاليد فكرية، واجتماعية، وسياسية نسبت إلى الإسلام زوراً، وهي ليست منه في شيء.

---

(١) حديث صحيح، رواه ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (١٨٨٥).

ب ـ والغزو الثقافي. . ومحاولة تحقيق النصر الثقافي بعد أن تمّ للأعداء النصر العسكري، والحق أن المقاومة الإسلامية من الناحية الثقافية، صمدت بنجاح حتى الآن، بل إنها استعادت بعض المراكز التي فقدتها، وهي ماضية إلى غايتها بعزم شديد؛ ولكن الهجوم ما يزال متتابعاً، ولا نزال بحاجة إلّى مجاهدين في حقول العلم، والثقافة، لتثبيت المواقع الباقية، واسترداد المواقع الأخرى.

٢ ـ تفاوت إشكالات الأمة:

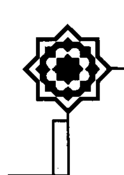
أ ـ والأمة الإسلامية اليوم موزعة على عشرات الدول، وأمر الإسلام في كل دولة منها يستحق الدراسة، ومن المؤسف أننا لا نرى الإسلام متكاملاً في أي واحدة منها، بل هناك مجتمعات لا تعترف بالحدود والقصاص، ومجتمعات لا تعترف بدساتير الحريات والحقوق، ومجتمعات لا تعترف بالحلال والحرام، وأخرى تترك الصلاة والصيام.

وأعداء الإسلام كلما رأوا جزءاً منه أصابه الشلل؛ سارعوا بالتدخل الماكر ليزيدوا الطين بِلَّةً، أو ليزيدوا الأمر عِلَّةً.

ومعالجة هذا الأمر، يفتقر إلى الأناة والحكمة. . فالانحدار حصل خلال قرون، والعودة إلى السبيل القويم يحتاج إلى تخطيط سليم، وأناة وصبر.

ب ـ إن الارتقاء العقلي والخلقي لمجتمع قد يغطي القصور لدى بعض الناس.. ولكن الارتقاء الجزئي عند البعض لا يغطي قصور الكثير من العابثين.. ونحن نعيش حالة انفصام في المجتمعات الإسلامية فأمر المسلمين لا يقوم على دعاية كاذبة، ومزاعم تافهة.. وما تقوم أمة على مثل هذه الدعايات والأراجيف.

وإذا افترضنا وجود بعض المتدينين ممن يحاول حمل التبعة في التصدي لتيار الانحراف هذا.. فبعض أولئك يحمل تدينهم عوجاً فكرياً ونفسياً، حتى تتجاوز فيه المتناقضات، وقد تضيع فيه الحقيقة ويبقى الشكل الذي لا وزن له.. وهذه الحقائق تشمل الأفراد والجماعات بل لعل آثارها السلبية والإيجابية تكون أكثر وضوحاً في تاريخ الأمم منها في تاريخ الآحاد من الناس.



أهم أولويات المنهج المقترح

١ ـ بناء الشخصية المتوازنة:

وإذا أخذنا بعين الاعتبار هذه الملاحظات، فإننا نرى أهم الأولويات تقفز إلى المقدمة في الخطة النظرية وهي:

بناء الفرد المسلم، بل قل إن محور النظرية وأساسها الاهتمام بالفرد المسلم الذي تصبح به الخطة واقعاً ملموساً، وتدب من خلاله الحياة الإسلامية في المجتمع الإسلامي.. ولا بد من التركيز على نقطتين: العقل السوي، والقلب السليم.

فإن أساس الفطرة عقل سوي، وقلب سليم، ونستطيع ونحن ندرس الإسلام الحنيف أن نرى سنن الفطرة، وآدابها، وتعاليمها الكثيرة، ولكن شيئاً من ذلك على مكانته لا يغني عن ركنَي الفطرة الأصليين وهما: الفكر الحصيف، والقلب السليم.

ذلك أنه من حصافة الفكر ونضج العقل ينشأ الإدراك الفقهي الواسع.. فكم من عابدين أساءوا إلى الإسلام، وجَرُّوا عليه متاعب بقصور فقههم، وإن كانوا له مخلصين.

٢ ـ التخطيط لتربية الفرد المسلم:

ولنخش ونحن نخطط لمناهج في تربية الفرد مما يلي:

أ ـ أن تفقد العبادات وجهتها السماوية وقيمتها الروحية، ونتائجها الاجتماعية، عندما تمارس حركات بدنية وحسب.. وإن نقاوة القلب وسلامة الفطرة تعني إنساناً يعبد الله بصدق وتجرد، ويعامل الناس بالمحبة والعدل.

ب ـ وقد يكون الرجل حسن المعرفة ذكي الفهم، ولكن رغبته في فرض ذاته، وإظهار مكانته تستبد به؛ فيقتحم الصعب والذلول، وينفق الغالي والرخيص؛ ليكون الأمر له على حساب الدين ومصلحة الأمة ومستقبلها، إنه لا بد من وضاءة الضمير والتفكير معاً؛ لتتم مقومات الفطرة السليمة.. إن الفقه كشاف جيد للنية الصالحة، والسريرة المعافاة من الأحقاد والأمراض النفسية.

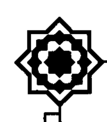
ج ـ هناك عباد نحقِّر صلاتنا مع صلاتهم، وعباداتنا مع عباداتهم ومظاهرنا مع مظاهرهم، فهموا الإسلام عبادة فحسب؛ وقفوا عند هذا الحد من الفهم لا يتعدونه، لكن روابطهم الاجتماعية والمادية واهية، بل معدومة عند الصلة بالإسلام. فأي دين لأولئك المدعين؟؟.

د - ذكر الله ﷻ عِلَلَ بعض المتدينين ممن قبلنا من الناس، وحَذَّرَنا من الوقوع فيها؛ فلنتأمل في كتاب الله، ولننظر في واقع المسلمين؛ إننا نخشى أن نجد بعض تلك الأمراض متفشية في مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، بل قل في بعض من يتصدر العمل للإسلام، وذلك هو الخطر الكبير.

هـ من أجل ذلك ينبغي أن نعرف الإنسان بالحق، ولا نعرف الحق بالإنسان، فلا تؤمن على الأحياء الفتنة، وليكن الميزان هو كتاب الله تعالى الذي رفع من قيمة التقوى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣] والأسوة في ذلك نبينا الخاتم عليه الصلاة والسلام: فقد «كان خلقه القرآن» وعملاً بقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب] فالشخصية الإسلامية المطلوبة هي تلك الشخصية المتوازنة التي تحرص على تمثل شُعَبِ الإيمان كلها، ولا شك أن شُعَبَ الإيمان التي تزيد على السبعين موزعة توزيعاً دقيقاً على الدائرة الرحبة؛ التي تمتد إليها وظيفة الإيمان، وتنتشر فيها أشعته.

ولما كان الإسلام علاقة تشمل النفس، والمجتمع،

والدولة، وتتناول المعاش والمعاد، في إطار من معرفة الله، ورقابته، فإن تعاليمه تشبه شبكة الأعصاب المبسوطة في سائر كيان الإنسان.. وأن التفريط في بعضها يعني نقصاً في بناء الذات؛ قد يزداد ويصبح مدمراً... وقد يستشري ليصيب الإنسان بالعجز... وإن العاجزين لا يمكن أن يقودوا أمة إلى نصر...



ذكر الأستاذ محمد قطب في هذا الموضوع ما مفاده:

«تختلف الجماعات العاملة اليوم في حقل الدعوى اختلافاً واسعاً حول منهج الحركة الواجب اتباعه في المرحلة الراهنة، وربما لم يكن هذا الخلاف قائماً قبل ربع قرن أو أكثر من الزمان، فقد كانت الحركة تسير على المنهج الذي رسمه الإمام الشهيد وأقام جماعته على أساسه، ولم تكن هناك في الساحة جماعات أخرى غير تلك الجماعة.

ولكن الموقف اليوم يختلف... تعددت الجماعات، وتعددت وجهات النظر... وتعددت المواقف بتعدد وجهات النظر. ولكن هناك أمراً مشتركاً يجمع بين معظم هذه الجماعات، وأن اختلفت مواقفها ومناهجها.. هو التعجل»[1].

ويناقش هؤلاء المتعجلين ويبين حججهم ويفند

(١) «واقعنا المعاصر» الأستاذ محمد قطب (ص٤٥٤، ٤٥٥).

أخطاءهم حينما يقيسون الحركة الإسلامية على الحركات العلمانية الأخرى، لأن هذه الحركات لا تنجح بجهدها الذاتي، وإنما تُنجَّح من الخارج بتحريك أعداء الإسلام لها، وإعطائها السند اللازم، والقوة اللازمة لها لقهر شعوبها وإذلالها.

فلا بد إذن ـ بداهة ـ أن يقوم السند للحكم الإسلامي من داخل الأمة المسلمة ما دام لا يمكن أن يجيء من خارجها، فهل هذا السند موجود في الحقيقة؟!

ثم يؤكد أن هذا السند غير موجود، وإنما الموجود هو جماعة، أو جماعات قائمة بالعمل الإسلامي، وليس بينها وبين الجماهير في الحقيقة قضية مشتركة.. وإن حدث التعاطف العارض فهو أمر يختلف عن وجود الحقيقة المشتركة، والقضية المشتركة التي ينبغي أن تكون هي وجوب التحاكم إلى شريعة الله ونبذ غيرها من الشرائع كما أمر الله.

وهذه القضية ما تزال ـ كما أثبتت التجارب ـ غير واضحة المعالم عند الجماهير، وتغيير حال الأمة وإرجاعها إلى حقيقة الإسلام، أمر لا يتم بالسهولة التي يتصورها كثير من الناس، إنما يحتاج ـ بحسب السنة الجارية ـ إلى وقت أطول بكثير، وجهد أكبر بكثير مما تم حتى هذه اللحظة في جميع الميادين.

ثم يؤكد على ضرورة التربية واستمرارها حتى تتربى (النخبة الراشدة) التي تحمل البناء بالحجم المعقول وبأقرب شيء إلى المستوى المنشود.

المواصفات المطلوبة لهذا العمل:

ويكتفي بذكر ثلاثة أبعاد ينتقيها من بين أبعاد كثيرة ومجالات عديدة للتربية المطلوبة ذات أهمية خاصة، وإن كانت كل أبعاد التربية مهمة في الحقيقة، وخاصة بالنسبة لبناء القاعدة المطلوبة.

١ - وضوح العقيدة:

المتمثل (بلا إله إلا الله) في حقيقتها الاعتقادية... ليس بمجرد اعتقاد ذهني بأن الله تعالى واحد... فما أيسر أن يعتقد الذهن ذلك - وإن كان قد صعب على العرب في جاهليتهم - ولكن تبقى شوائب نفسية وشعورية كثيرة عالقة بهذا الاعتقاد الذهني، لا تظهر إلا في السلوك العلمي في حالتي الشدة والرخاء سواء، وفي غربة الإسلام الثانية إلى مثل ما احتاج إليه الأمر في الغربة الأولى، إن لم يكن على ذات المستوى السابق، فعلى أقرب مستوى يُطيقه البشر في جولتهم الثانية لإزالة غربة الإسلام[١].

---

(١) «واقعنا المعاصر» الأستاذ قطب (ص٤٨٦، ٤٨٧).

٢ ـ الأخوة الإسلامية:

ما الأخوة التي وردت الإشارة إليها في كتاب الله تعالى؟

إن الأخوة في الأمن والسلم لا تكلّف شيئاً، ولا تتعارض مع رغائب النفس، أما في حال الشدة أو الطمع فهنا تختبر الأخوة الاختبار الحق الذي يتميز فيه الإيثار والحب للآخرين، من الأثرة وحب الذات التي قد تخفى على صاحبها نفسه في حال السلام والأمن، فيظن نفسه أخاً محققاً لكل مستلزمات الأخوة[١]!

فلا بد في غربة الإسلام الثانية من الاهتمام بهذه التربية العملية للمشاعر الإيمانية داخل الجماعة حتى يصبح البنيان متيناً مترابطاً يشدّ بعضه بعضاً.

٣ ـ النظام:

وهو من ضرورات الحياة البشرية.. وفي هذه الأيام خاصة يتردد القول بأنه من التحديات التي تواجه هذه الأمة[٢].

والإسلام كلمة نظام ودقة، مع سماحته التي تعطف على الضعف البشري ما دام صاحبه لا يصرّ عليه، وخطابه الذي يتعامل مع النفوس البشرية لا على أنها آلات وأدوات،

---

(١) «واقعنا المعاصر» الأستاذ قطب (ص٤٨٩).

(٢) «واقعنا المعاصر» الأستاذ قطب (ص٤٩١).

ولكن على أنها مشاعر وعواطف؛ فيرفع عنها الحرج.

ويتبدّى النظام واضحاً في العبادات خاصة: كالصلاة التي هي مواقيت، والصوم مواقيت، والحج كذلك، والزكاة أيضاً مواقيت دقيقة، فضلاً عن النظام الدقيق في كل عبادة من هؤلاء، وخاصة في الصلاة والحج.

ومع النظام والانضباط والنظر في النتائج ربّى الإسلام أتباعه على النفس الطويل، والرؤية البعيدة... فهناك هدف بعيد لكل فرد، وهناك أهداف ممتدة لكل الأمة...

ومع النظام لم تعد العفوية هي صورة العمل في الأمة الإسلامية، لأن لكل عمل ضوابطه الشرعية، وللشريعة في كل عمل مقاصد ينبغي تحقيقها... ومن ثم يراجع الإنسان كل عمل يعمله ليرى هل هو في دائرة الحلال المباح أم خرج عنها، ويراجع النتائج التي يمكن أن تترتب على عمله ليرى هل هي متناسبة مع مقاصد الشريعة أم مخالفة لها.

تلك ثلاثة أبعاد للتربية من بين أبعاد كثيرة في مجالات مختلفة، ليست مُثلاً خيالية ولا هي تحديات، إنما هي شروط ضرورية لقيام القاعدة المطلوبة، التي تستطيع أن تتحمل العبء الملقى عليها في مواجهة الجاهلية المتربصة بالكيد.

إن بعض مجالات التربية قد قطعنا فيه شوطاً ولم

نصل، وإن بعضها الآخر لم نبدأ فيه بعد! وكل تعجل في ميدان التربية بالذات لا يأتي بخير، لأنه يكون بمثابة إقامة بنيان على غير أساس. . . أو على غير أساس مكين، فكلما ارتفع كان عرضة للانهيار.

ولننظر إلى واقع الصحوة الإسلامية بعدما يزيد قليلاً عن نصف قرن منذ بدأها الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله. هناك ظاهرتان على الساحة، إحداهما تدعو إلى التفاؤل، والأخرى تثير الأسى في نفوس الدعاة المخلصين:

١ ـ **الأولى: هي اتساع النخبة الصالحة** واتجاه مزيد من الشباب إلى الإسلام، بحيث يصح أن يقال إن الإقبال على الإسلام أصبح تياراً ذاتياً عند الشباب؛ لا يرتبط بالضرورة بنشاط جماعة معينة، أو بوجود جماعة معينة؛ إنما ينبعث تلقائياً في نفوس الشباب.

٢ ـ **الثانية: هي تبعثر العمل** الإسلامي وتفرقه، وكثرة الجماعات التي تعمل في الساحة وتناقضها وتنابذها، وانتقاد كل واحدة منها لسائرها، وادعاؤها أنها وحدها على الحق وبقية الجماعات على ضلال! والظاهرتان قد وجدتا ـ بقدر من الله ـ معاً في وقت واحد مع اختلافهما في الاتجاه! ولكن هناك أسباباً متواكبة هي التي أدت إلى هذا الوضع.

فاتساع هذه النخبة المتميزة يرجع ـ من جانب ـ إلى جهود الدعاة العاملين في حقل الدعوة، ويرجع ـ من جانب آخر إلى المذابح المتوالية التي يقيمها أعداء الإسلام للمسلمين! وتلك سنة يغفل عنها أعداء الإسلام مع تكرارها دائماً مع الأيام، وإن الدعوة التي يقدم لها الدم لا تموت! والأعداء من ـ حنقهم ـ لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من التقتيل والتعذيب والتشريد. . . واستشهاد رجل واحد موصول بالله، يصنع الله به للدعوة ما لا تصنعه ألوف الخطب والكتب والمحاضرات. . . ولكن الظالمين لا يعلمون.

أما تبعثر العمل الإسلامي فله أسباب عدة:

١ ـ **غياب القيادة الكبيرة** التي تطمئن لها النفوس، وتنقاد لها طائفة بدافع الحب والتقدير والاحترام والثقة؛ فيلتئم حولها الشمل وتجتمع لها القلوب؛ ولا شك أن وجود القيادة الناجحة يقلل كثيراً دون شك من مشاكل التجمع، وفي غياب مثل هذه القيادة تتولد زعامات صغيرة شابة تنقصها الخبرة، وكثيراً ما يختلط في نفوسها الإخلاص للدعوة، والإخلاص للذات، وذلك مدخل من مداخل الشيطان هو اعتقاد كل واحد منهم أنه على الحق، ومن ثم تتنافر هذه الزعامات وتتناطح، ويقول كل منها: على فلان وجماعته ـ إذا أرادوا ـ أن يأتوا إليّ ويتبعوني؛

أما أنا فلا أذهب إليهم، ولا أتبعهم، لأنهم ليسوا على الحق!

٢ ـ **أن معظم الشباب المقبل على الدعوة اليوم لم يترب داخل جماعة** واحدة ذات قيادة حكيمة منظمة؛ لغياب القيادات العاملة داخل السجون والمعتقلات، وإنما تربى على الكتب... وعلى القراءة... والقراءة وحدها لا تكفي! إن العمل الإسلامي لا بد له من قيادة تقوده وتعلّمه وتربيه. إن من شأن العقول أن تختلف على دلالة النص الواحد، وإن كان قطعي الثبوت وقطعي الدلالة؛ فما بالك إن كانت النصوص المتداولة غير قطعية الدلالة، وما بالك إن كان بعضها غير قطعي الثبوت؟! لقد نجم الخلاف طبيعياً ـ وإن كان غير مرغوب فيه ـ مع نشأة هذا الشباب على قراءة الكتب بلا مرشد يرشد، ولا معلم يعلم، ولا قائد يقود! ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

أما القيادة الكبيرة المطلوبة دائماً للعمل الإسلامي، فهي هبة ربانية لا تصنع؛ فليس هناك مصنع نستطيع أن نوصيه بأن يصنع لنا القيادة المطلوبة خلال فترة معينة من الزمن! ولكن هناك الموهبة الربانية، وهناك المصنع الرباني، وهو الابتلاءات والاختبارات التي تمحّص

المؤمنين، وتبرز من بينهم من هو أصلح للقيادة والتوجيه؛ إنما علينا نحن واجب نتقدم به بين يدي الله، لنطمع أن يستجيب لنا حين ندعوه؛ أن يبرز لنا القائد المطلوب، وهو أن نخلص النية له سبحانه، ونخلص العمل، وينبغي أن ننتبه إلى مسألة مهمة في هذا الشأن... إن تصحيح المفاهيم، وتصحيح المنهج أمر ضروري للدعوة الإسلامية الراشدة دون شك، وما تستطيع الحركة أن تثمر ثمرتها المرجوة؛ إن لم تعرف الطريق الصحيح، وتتوجه إليه، ولكن محاولة التصحيح بالتنابذ والفرقة، والتدافع بالمناكب، والجدل الدائم الذي يحاول كل فريق فيه تسفيه الآخرين، وتجريحهم والنيل منهم... كل ذلك جهد ضائع بلا ثمرة إلا الثمرة النكدة التي يتلقفها الشيطان! إنما يكون التصحيح بالبيان الهادئ، وإبراز الدليل الشرعي الذي تبنى عليه الأحكام؛ مع التفقه في دين الله قبل إصدار الحكم الذي يتشبث به صاحبه، ويفاصل الناس عليه[١].

أساليب من العمل يفكر بها المتعجلون:

هناك نوعان رئيسيان من التفكير، ونوعان من «العمل» يفكر فيهما المتعجلون، وبحسب كونهم من

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٤٣٩).

الشباب أو من الشيوخ، بالإضافة إلى لون ثالث وإن كان لا يمثل حتى الآن ظاهرة في ساحة العمل الإسلامي، ولكن أصحابه يحاولون أن يجعلوا منه تلك الظاهرة، ويحاولون أن يحوّلوا العمل الإسلامي كله إليه... فأما الشبان ـ الذين تملؤهم الحماسة، وتدفعهم إلى التعجل ـ فتفكيرهم هو وجوب الوصول إلى الحكم بالقوة، وتربية الأمة من موقع السلطة، لا من موقع الدعوة؛ لأن التربية من موقع الدعوة أمر يطول به الزمن، ويطول به الطريق؛ بسبب وقوف الأعداء بالمرصاد، وتعويقهم المستمر للدعوة والحركة الإسلامية، وتشتيتها كلما أرادت أن تتجمع...

وأما الشيوخ ـ الذين أجهدهم السعي الطويل، والضربات المتوالية على الطريق ـ فتفكيرهم هو الدعوة (السليمة) التي لا تصطدم مع السلطة أبداً، والتي تخوّل جناحاً من أجنحتها الدخول في البرلمانات والانتخابات، ومحاولة التأثير على مجرى السياسة من داخله، أو على الأقل إعلان صوت الإسلام من داخل الأجهزة السياسية التي تسيطر اليوم على حياة الناس، حتى يكون لهذا الصوت وقع في حسّ الناس.

١ ـ **نفترض جدلاً أن مجموعة من الشباب** المتحمس قد أحكمت التدبير، فقامت «بانقلاب» وأقامت حكومة إسلامية في أي بقعة في العالم الإسلامي فمن يسندها؟!

فلنكن واقعيين.. ولنقل إن الجماعات الإسلامية لم تزل بعد أصغر من حجم العمل المطلوب؛ إنما يحتاج الأمر إلى قاعدة مثل القاعدة الموجودة في أفغانستان، تستطيع القتال والصمود لكيد الأعداء... أما أن تكون القاعدة على هذا النحو؛ فكل محاولة للصدام مع السلطة للوصول إلى الحكم عبث غير مبني على بصيرة ولا تدبّر.

٢ ـ **وأما الشيوخ** فهم يعتقدون أن الدعوة قد وصلت إلى طريق مسدود، وأنه يجب من ثم تغير الطريق! والطريق الذي يظنونه موصلاً هو دخول البرلمانات والانتخابات، وإعلان صوت الإسلام من هناك، ما دام لا يسمح بإعلانه من غير هذا الطريق[١] ونقول لهم: إن استخدام هذا الطريق عبث لا يؤدي إلى نتيجة قبل تكوّن الجماعة المسلمة ذات الحجم المعقول؛ فماذا يستطيع البرلمان أن يضع بدون «القاعدة المسلمة» التي تسند قيام الحكم الإسلامي، ثم تسند استمراره في الوجود بعد قيامه؟! إنه تفكير ساذج رغم كل ما يقال من المبررات... وفوق ذلك فهو يحتوي على مزالق خطيرة تصيب الدعوة في الصميم وتعوّقها كثيراً:

المزلق الأول: هو المزلق العقيدي، وهو كيف يجوز للمسلم الذي يأمره دينه بالتحاكم إلى شريعة الله

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٤٦٢).

وحدها دون سواها.. كيف يجوز له أن يشارك في المجلس الذي يشرّع بغير ما أنزل الله؟ ويعلن بسلوكه العملي ـ في كل مناسبة ـ أنه يرفض التحاكم إلى شريعة الله؟!

المزلق الثاني: هو تميع القضية بالنسبة للجماهير، وإذا كنا نحن نجد لأنفسنا المبررات للمشاركة في النظام الذي نعلن للناس أنه باطل، فكيف نتوقع من الجماهير أن تمتنع عن المشاركة وكيف تنشأ «القاعدة الإسلامية» التي يقوم عليها الحكم الإسلامي؟

المزلق الثالث: أن لعبة «الدبلوماسية» كما أثبتت القرون كلها، لعبة يأكل القوي فيها الضعيف، ولا يتاح للضعيف من خلالها أن يسلب من يد القوي شيئاً من السلطان.. ومن ثم فالجماعات الإسلامية الداخلة في التنظيمات السياسية لأعداء الإسلام هي الخاسرة في لعبة الدبلوماسية والأعداء هم الكاسبون..

٣ ـ الفريق الثالث من المتعجلين هم أصحاب «التفكير العلمي» أو «الدراسات العلمية» ويقول أصحاب هذا الاتجاه أن «التجربة الشرقية» قد استنفدت أغراضها، ووصلت إلى طريق مسدود؛ وإنه آن الأوان أن تتسلم قيادة العمل الإسلامي عقول جديدة؛ تفكر تفكيراً علمياً مبنياً على دراسات علمية؛ فتقدم للناس الحلول العملية

لمشكلاتهم مستمدة من الإسلام... وهذا هو الطريق[1].
فهل يكفي «الاقتناع» وحده و«التفكير العلمي» وحده لمواجهة التعذيب الوحشي؛ الذي يصب على المسلمين المطالبين بتحكيم شريعة الله؟ أم يحتاج الأمر إلى عقيدة؟ ثم هل يترك أعداء الإسلام المسلمين يفعلون ما يريدون طالما أنهم يسلكون السبيل العلمي؟!

ثم إن نحن قدمنا «الحلول العلمية» للناس؛ قبل أن يستقر في خلدهم ـ إلى درجة اليقين أن التزامهم بشريعة الله، أو عدم التزامهم بها هو قضية الإيمان والكفر؛ فهل يتم الأمر على الصورة التي يتخيلها الباحثون؟! إن الاقتناع العقلي لم يغيّر شيئاً في عالم الواقع حتى في أوقات السلامة والأمن؛ فضلاً عن حالات الاضطهاد الوحشي، والذي أثبتته التجارب في «العالم القديم» أن هذه العقيدة هي التي تحتاج قبل أي شيء إلى تصحيح... لأنها فرغت من محتواها خلال الأجيال، وفي القرن الأخير خاصة؛ فأصبحت بحاجة ملحة إلى بيان حقيقتها؛ ثم تربية الناس على مقتضى هذه الحقيقة حتى يصبح سلوكهم العملي في كل المجالات، ومن بينها مجال السياسة والحكم والاجتماع والاقتصاد والعلم والفكر مطابقاً لمقتضيات لا إله إلا الله. ونحن مع ذلك لا

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٤٦٦).

نقول للباحثين العلميين لا تبحثوا! بل نحن نسرّ بكل بحث متعمق يظهر من حقائق الإسلام ما كان خافياً من قبل.
ولكن فيم يكون البحث؟ وعلى أي نحو يكون؟

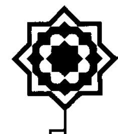
وهل يستطيع أحد على وجه اليقين، أو على وجه التخمين أن يقول: كيف تكون صورة المشكلات الاقتصادية مثلاً يوم تقوم الدولة الإسلامية المنشودة[(١)]؟!

فأي عبث في أن نبحث الآن تفصيلات الحلول العلمية لمشكلات زمن لا نعرف على وجه التحديد متى يكون، ولا نعرف على وجه التحديد كيف سيكون حجمها وشكلها يوم نحاول أن نواجهها بالحل الإسلامي؟!

وهكذا يستطرد الباحث في بيان عبثية هذه الدراسات بسبب تغير المشكلات مع تطور الزمن؛ يؤكد على ضرورة تقديم أولوية إقامة القاعدة المسلمة المؤمنة المجاهدة الصابرة على الابتلاء، ويرى أن البحث عن الحلول العملية لمشكلاتنا المعاصرة يكون عبثاً غير معقول[(٢)].

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٤٧١).
(٢) «واقعنا المعاصر» (ص٤٧٣).



(وأخـــــيراً)

[ملاحظات في الخطة النظرية للعمل والمنهج الإسلامي الذي نراه]

١ ـ يجب أن ننبه ابتداء إلى أن **اختلاف الآراء في العمل الإسلامي ظاهرة صحية** إذا توفرت لها الشروط المنهجية والأخلاقية؛ بحيث لا يصدر ذلك عن هوى وفتنة، بل يكون تمحيصاً رشيداً، وحواراً بناءً.

٢ ـ إن المواقف المتشنجة، و**محاولات التغيير السريعة**، والتعجل بقطف الثمرات أساءت إلى الحركة الإسلامية المعاصرة، وكلفتها خسارات باهظة.

ينبغي أن نعي قدراتنا بموضوعية، وأن نراعي سنن الله تعالى في التغيير، ومن أجل ذلك ينبغي التركيز على أفضليات تربوية وثقافية وعلمية في العمل الإسلامي...

٣ ـ الحركة الإسلامية المعاصرة لا تنقصها عقيدة فطرية واضحة، تزيل القلق من حياة الإنسان المعاصرة؛ بقدر ما **ينقصها أن تكون في مستوى مخاطبة الإنسان خطاباً علمياً معاصراً** بهذه العقيدة، وذلك بالاستجابة للحاجيات

العقلية والفكرية والفطرية للإنسان. وذلك بأن تكون قادرة على الإقناع الفكري والمنطقي؛ بتقديم أجوبة مقنعة حول مختلف الأسئلة الوجودية الكبرى؛ التي ترتبط بالإنسان كإنسان، وتساهم في حل مشكلاته المختلفة..

لقد ظنّ العقل الغربي في ظل نشوة الاختراعات العلمية، والانطلاقة الصناعية المذهلة؛ أن المادية الملحدة قد انتصرت على الإيمان، وأن العلم قد انتصر على الدين، وأنه حسم المشكلات الوجودية، بينما أظهر تطور الفكر الغربي اللاحق أنه لم يزد تلك المشكلات إلا تعميقاً وإلحاحاً؛ بل لقد كان من نتائج تلك الانطلاقة المادية المتطرفة ذات الجناح الواحد؛ أن ظهرت حركات تديّن متطرفة غريبة في أواسط الشباب الغربي، نتيجة كونه أخطأ طريق التدين الصحيح؛ ولما كانت الأديان السماوية السابقة، وهي المهيأة لتقديم الإجابات الصحيحة حول تلك التساؤلات ـ قد تعرضت نصوصها للتحريف ـ وكان الإسلام هو الدين السماوي الوحيد الذي سلمت نصوصه من ذلك؛ فإن عقيدة التوحيد الإسلامي ببساطتها ووضوحها وفطرتها؛ هي الوحيدة القادرة على الاستجابة للحاجات العقلية والفطرية للإنسان، كما أن حركات التغيير المنتمية إلى عقيدة التوحيد أقرب من حركات التغريب على تحريك الإنسان المسلم ومخاطبته بمنطق الفطرة.

٤ ـ كما أن الحركة الإسلامية المعاصرة **لا تنقصها الأسس لقيام نظرية متكاملة في التغيير الاجتماعي**..
فالشريعة الإسلامية بمقاصدها العامة إنما نزلت لتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة بإقامة العدل، ومقاومة الظلم وسائر مظاهر الفحشاء والمنكر، كما لا ينقصها تراث فقهي زاخر بالاجتهادات في مجابهة الأوضاع الفاسدة. **إن ما ينقص الحركة الإسلامية مزيد من الاستفادة من هذا التراث**؛ في بناء نظرية معاصرة للتغيير الاجتماعي؛ تراعي أصول الشريعة ومقاصدها، وتراعي في نفس الوقت واقع العصر ومستجداته، ونحن على علم أن هناط محاولات ومؤلفات في هذا الصدد، ولكنها ما تزال في حيز العموميات، وهي تستمد من الماضي دون أن تكون على إحاطة شاملة بالحاضر، ومشكلات العصر.

هذا مع أن مجال الاجتهاد الفقهي في الإسلام هو مجال المرونة، والتفاعل الواعي مع الواقع المتغير المنضبط بأصول فقهية؛ تراعي مقاصد الشريعة وغاياتها في تحقيق مصلحة الإنسان على وجه الأرض، وآماله في العدالة الاجتماعية، والكرامة الإنسانية.

٥ ـ **والحركة الإسلامية تحتاج اليوم إلى الارتقاء إلى مستوى الوعي** بعناصر القوة في الفكرة الإسلامية المعاصرة، فلا تتخذ منها وسيلة لإطراء الذات وتخدير

الناس، وتأجيج العواطف بدون جدوى، بل ينبغي أن توظف توظيفاً واعياً في إقامة الشهادة على العصر، والتنبيه إلى الأخطار المحدقة بموضوعية، والحوار مع الآخرين بدون استعلاء، ولا تبعية؛ تقلل من طنين العواطف، وتضيف من رصيد المناهج المدروسة، لا تحارب السلبية بالتهجم العشوائي؛ بل بالصبر والحكمة والمعرفة، والبرامج المدروسة، في كل ميدان من قبل الاختصاصيين.

٦ ـ **إننا نعيش أزمة في الفقه السياسي لم يعش مثيلاً لها المسلمون الأوائل**؛ فقد اعتصموا بأول وثيقة دستورية توحيدية، ولم تكن الحياة معقدة والأمور مضطربة، وكان الحاكم يخشى الله ويقف عند حدوده؛ فلما تغير الحال، وبدأت ممارسات أخرى؛ انصرف الفقهاء إلى العبادات يفصّلون آدابها وشعائرها، وإلى المعاملات المادية يوضحون أحكامها، وأهملوا الفقه السياسي وانفصل السلطان عن القرآن في جوانب من الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية العامة.

٧ ـ كما إنه لم يعد التعميم والإطلاق في قضايا الحريات العامة، والحقوق الإنسانية والشخصية كافية في هذا العصر، بل **لا بد من الأحكام والتشريعات التفصيلية**؛ التي توضح أبعاد العلاقات الإنسانية والحقوق الشخصية والحريات العامة، وحدود العلاقات بين الحاكم

والمحكوم، وبين الناس جميعاً، وتأصيل الشورى في اختيار الحاكم، وفي إدارة دفة الحكم.

٨ ـ **إننا بحاجة إلى متخصصين في كل ضروب المعرفة الإسلامية والإنسانية** كما يتطلب وجود مجتهدين استكملوا أدوات الاجتهاد وعدته.

والبحث عن المتخصصين.. أو محاولة إعدادهم، لا بد من التحرك فيه على ثلاث محاور:

أولاً: مجموعة الاختصاصيين في العلوم الإسلامية الذين يوظفون اختصاصاتهم لخدمة قضية الإسلام.. فلا بد من محاولة تشكيل القاعدة الفقهية الفاعلة عندهم؛ ليوظفوا اختصاصاتهم هذه في رسم أبعاد المشروع الإسلامي، أو الاستفادة من اختصاصاتهم وتوظيفها بناء على قاعدة الفقه الحركي الإسلامي، لمعالجة كثير من المشكلات المعاصرة في جميع ميادين الحياة.

ثانياً: مجموعة الاختصاصيين في مختلف أنواع العلوم والمعارف الإنسانية، وهؤلاء يمكن الاستفادة من علومهم، وتوظيفها بناء على قاعدة الفقه الحركي الإسلامي في العمل على تقدم المجتمع، وازدهار الحياة بإيجابية، وبما يحقق مصالح الإنسانية المعاصرة.

ثالثاً: وإذا تعذر الوصول إلى (اختصاصيين) حالياً، يمكن توظيف علومهم في فن من الفنون بإيجابية واقتدار،

فستبقى هناك فجوة ينبغي تداركها، ولا شك أن هجرة العقول العربية الإسلامية إلى ديار الغرب نتيجة الاستبداد، ومطاردة أصحاب العقول، وحظر الحريات العامة التي أصابت بعضهم بالإحباط، فولى وجهه شطر تلك البلاد مهاجراً ليضمن بعض أسباب العيش والاحترام، الذي افتقده في وطنه، يمكن أن يكون سبيلاً لترميم هذه الفجوة، وتدارك هذا النقص، حينما تعود الأمور إلى نصابها، والحياة إلى مجاريها الصافية في ظل احترام حقوق الإنسان في الإسلام وقيمه ومبادئه وإبداعاته، والتي نحسب أنها من أوليات محاسن تطبيق المشروع الإسلامي.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
* **مقدمة**	٥
ظهور المناهج العلمانية والسقوط السياسي الإسلامي	١١
نتائج سقوط الخلافة العثمانية	١٤
أسباب سقوط الخلافة العثمانية	١٨
الاستعمار والتحرر الوطني	٢١
الفصل الثاني: التفسير الغربي للأحداث	٢٦
إحياء الإسلام الأصولي وفق التفسير الغربي له	٢٦
دراسة غربية للأحداث	٢٧
تعقيب وتوضيح لهذه الدراسة الغربية للأحداث	٤٠
التصورات النظرية المناسبة	٤٣
الفصل الثالث: تعقيب واستنتاج	٤٧
١ ـ أزمة العلمانية تتجلى في: الهوية والثقافة والمشروعية والاستبداد والهزيمة العسكرية	٤٧
٢ ـ أسباب أزمة المناهج العلمانية	٤٩
٣ ـ شروط نجاح أية عقيدة أو فكرة تتلخص في ثلاثة عناصر	٥١
رصيد الامتداد الجهادي عبر التاريخ الإنساني	٦٠

الموضوع	الصفحة

أ ـ تاريخ القيم الإسلامية ممتد عبر امتداد التاريخ الإنساني ٦١

ب ـ عالمية المنهج الإسلامي ٦٢

ج ـ الانحسار الظرفي للمنهج الإسلامي ٦٤

د ـ افتراق السلطان عن القرآن ٦٥

٤ ـ طريق الدعوة إلى المنهج الإسلامي وقدرته على التغيير الإيجابي ٦٦

الفصل الرابع: المنهج الإسلامي يسعى للتغيير وفق السنن المشروعة ٦٩

١ ـ الأهداف الرئيسية للمنهج الإسلامي ٧٠

أولاً: إعداد الفرد الرباني ٧٠

ثانياً: إعداد البيت المسلم ٧٧

ثالثاً: قضية المرأة ٧٨

رابعاً: المجتمع الصالح ٨٠

خامساً: الوسائل التربوية والتطبيقية ٨٢

الفصل الخامس: توضيح المنهج الإسلامي باجتهادات فقهية معاصرة ٨٥

معنى التجديد في الإسلام ٨٧

مراعاة الطبيعة الإنسانية في التشريع ٨٨

١ ـ متاعب الدعاة ٨٩

٢ ـ تفاوت إشكالات الأمة ٩٠

أهم أولويات المنهج المقترح ٩٢

١ ـ بناء الشخصية المتوازنة ٩٢

الموضوع	الصفحة
٢ ـ التخطيط لتربية الفرد المسلم	٩٣
نقد ذاتي للمناهج الإسلامية المعاصرة	٩٦
المواصفات المطلوبة لهذا العمل	٩٨
أسباب تبعثر العمل الإسلامي	١٠٢
أساليب من العمل يفكر بها المتعجلون	١٠٤
وأخيراً: ملاحظات في الخطة النظرية للعمل والمنهج الإسلامي الذي نراه	١١٠
*** فهرس الموضوعات**	١١٧